كلمات في العقيدة

الكتاب السابع

د. أمير علي الحداد

كلمات في العقيدة


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد للّه فاطر السماوات والأرض.. الحمد للّه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، أحمده تبارك وتعالى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.. أحمده ملء السماوات وملأ الأرض وملء ما شاء من شيء بعد.. اللهم إني لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك...

وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له.. الواحد القهار.. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي المختار المبعوث بالتبشير والإنذار صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تتجدد بالعشي والإبكار.

أما بعد....

فقد ثبت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال...

«**من قال لا إله إلا اللّه صادقاً بها قلبه دخل الجنة**» (السلسلة الصحيحة)... ولما كان أول ما يسأل عنه المرء في قبره.. (من ربك!) (ما دينك؟).. (ما تقول في هذا الرجل؟) (متفق عليه)...

ولما كانت العقيدة الصحيحة هي سبيل النجاة من الخلود في النار... والشرك هو السبب الوحيد للخلود فيها.. فهذا هو الكتاب السابع في سلسلة (كلمات في العقيدة).. تبين للناس أمور عقيدتهم بأسلوب التحاور اليومي.. لتثبت عندهم أسس التوحيد وتفند أسس الشرك وملحقاته..

ولما كان عمل البشر لا يخلو من الزلل والخطأ فإني سائل كل من وجد من ذلك شيئا ألا يبخل علي بالنصح والإرشاد.. وإني سائل كل من انتفع بشيء من هذه السلسلة ألا يبخل علي بدعوة صادقة في ظهر الغيب، عسى الله أن ينفعني وإياه بها..

وفي هذا المقام ينبغي الدعوة بخير الجزاء لكل من ساهم في إخراج هذا الجزء سواء بالحوار أو المناقشة أو المراجعة أو الطباعة...

أسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم لارياء ولا سمعة، وأن يجعله عملاً صالحاً ينفع بعد الموت.. اللهم آمين...

الفقير إلى عفو ربه

د. أمير علي الحداد

إبريل ٢٠٠٦ ربيع الأول ١٤٢٧

للتواصل:

amir122@yahoo.com

لماذا.... دائماً العقيدة؟

ينتقدني بعضهم أنني أبالغ في الإهتمام بالعقيدة.. لا ألومهم.. وذلك أنه مَن لم يعرف الشرك لا يشعر بأهمية التوحيد... عندما يتعلم المرء خطورة الشرك وسهولة الوقوع فيه لا يملك إلا أن يتشبث بالعقيدة الصحيحة.. يتعلمها.. يدعو إليها.. ينشرها بين الناس.. أتذكر دائماً قول الله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١﴾ (غافر). معظم من أعرف لا يهتمون لأمر العقيدة.. وكثير منهم يجهل التفاصيل.. وأغلبهم يفضل الحديث في الرقائق..

كنت مع (فهد) في حوار بين المغرب والعشاء..

- إن العقيدة هي (طوق النجاة).. «**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئاً خلد في النار**» (أصله متفق عليه)...

- ولكنك تطلب من الناس تعلم تفاصيل الأمـور.. وتطلب منهم الاستمرار في ذلك...

- بل أطلب من كل أحد أن يتعلم ما يحتاج إليه.. و «**طلب العلم فريضة**» (حسنه الألباني) عند الحاجة إلى العلم أليس كذلك؟! لم لا يتجرأ أحد أن يجازف بأمواله في البورصة إلا بعد أن يتعلم (فنون) التعامل فيها؟ متى يبيع كم يبيع ومتى يشتري وماذا يشتري؟... إن مصير الإنسان الأبدي أهم من ثروته الدنيوية... لماذا لا يتعلم كيف يحافظ على مصيره الأبدي ويسلك السبيل الذي ينجيه من عذاب خالد..؟

ـ ولكن حتى الذي يموت على العقيدة الصحيحة لا (يضمن) عدم الخلود في النار؟!!

أنكرت على صاحبي مقالته هذه...

ـ من قال هذا الكلام؟!

ـ ألم يقل الرسول صلى اللّه عليه وسلم.. «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله.. قالوا ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**» (صححه الألباني)؟! فالأمر متعلق برحمة اللّه عز وجل...

ـ هذا فهم خطأ وخطير... أولاً... نؤمن جميعاً أن من أشرك باللّه فقد حرّم اللّه عليه الجنة... وهو خالد في نار جهنم... وإذا مات الإنسان على العقيدة الصحيحة واجتنب نواقض هذه العقيدة... فإنه يضمن عدم الخلود في النار... ولكن المؤمن لا (يغتر) بعقيدته.. ولا يدخل قلبه الكِبر بعبادته... فقد كان أبليس من أعبد الخَلق... واغترَّ بصلاحه وأصابه الكبّر بتعبده فأبى أن يتبع أمر اللّه بالسجود لآدم... المؤمن يحافظ على التوحيد ويتجنب الشرك و(يرجو) أن يتفضل اللّه عليه ويدخله برحمته الجنة... فليس لأي مخلوق أمر على اللّه عز وجل... ولكن اللّه (أوجب) على نفسه (ألاّ يعذب من مات موحداً)... أي وعد ألاّ يخلد في النار من حقق العقيدة الصحيحة ولم ينقضها... وبهذا نوفّق بين الأحاديث والآيات كقول النبي صلى اللّه عليه وسلم لأبي ذر... «**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**» (متفق عليه)... وحديث «**حق الله على العباد وحق العباد على الله**» (متفق عليه).. وحديث «**من قال لا إله إلا الله صادقاً بها دخل**

الجنة» (السلسلة الصحيحة)... وجميع الآيات والأحاديث التي تفرق بين الناس بناء على العقيدة الصحيحة والعقيدة الباطلة.

- وماذا عن العبادات؟!

- بالطبع.. لا يستهين عبد موّحد للّه عز وجل بأية عبادة.. ولكن التقصير في العبادة أو حتى ترك بعض العبادات تكاسلاً والوقوع في بعض الذنوب تهاوناً لا يؤدي إلى الخلود في النار... أما نقض التوحيد والوقوع في الشرك فإنه يؤدي إلي الخلود في النار وإن كان المرء متعبداً منقطعاً عن الدنيا.. فما قيمة العبادة لرجل يعتقد (أن اللّه ثالث ثلاثة)... أو (أن للّه ولداً)... أو أن (أحداً ينفع ويضر ويغفر ويشفع مع اللّه عز وجل)؟!! لا شيء.

العقيدة... تربية

ـ يظن بعض المسلمين أن قضايا العقيدة قضايا علمية جامدة تحتاج إلى التركيز الذهني وتزيد المعلومات دون أن تؤثر على الجوانب التربوية لدى المسلم.. وهذا دون شك ظن خاطئ...

ـ صاحبي أحد الذين يحملون هذه الفكرة..

ـ هذه فكرة من ينظر إلى العقيدة «من الخارج» لا من يدْرسها ويدرّسها.. العقيدة في الله.. تورث المعرفة الصحيحة بالله، وبالتالي الخوف الصحيح والمراقبة الصحيحة والتوكل والدعاء الصحيح.. والتقوى الصحيحة.

قاطعني..

ـ ولكن لننطلق من الواقع.. إذا قرأنا في كتب العقيدة لا نرى إلا قضايا فكرية وآراء وردوداً وإثباتاً وتفنيداً.. أين التربية؟!

ـ ماذا تعني بالتربية؟

ـ أعني اكتساب الأخلاق.. كالصدق والأمانة ولين الجانب والتسامح مع الآخرين والإيثار، وغير ذلك.

ـ ومن قال إن العقيدة لا تورث كل هذه الأخلاق وأكثر منها.. إن العقيدة أول ما تورث (الأخلاق الصحيحة مع الله).. ثم مع جميع المخلوقات.. كيف لا يكون صاحب العقيدة زاهدا في الدنيا وهو يؤمن بأن (ما عند الله خير وأبقى)، وكيف لا يكون متواضعا وهو يؤمن بأن من صفات الله

(الكبر) ومن أسمائه الحسنى (المتكبر).. «**ومن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لن يدخل الجنة**» (أصله في مسلم).. وكيف لا يكون منفقاً كريماً وهو يعلم يقيناً أنه «**ما نقص مال من صدقة**» (صحيح الترغيب والترهيب).. وأن ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ (سبأ)، هذه وغيرها أخلاق تكون عند أصحاب العقيدة آكد وأوثق.

ـ هذا كلام جميل ولكن انظر إلى الواقع؟أعني أن الذين يركزون على العقيدة لا يذكرون شيئا عن الأخلاق!

ـ هل تعني أن دروس العقيدة تخلو عن الجانب التربوي؟

ـ نعم..

قالها واثقا.. مصراً..

ـ ربما يحتاج المرء إلى الأدلة من القرآن والسنة ليثبت قضية في العقيدة وبعض ما يخالف هذه العقيدة فيستغرق ذلك وقت المحاضرة بأكملها ولكن ذلك لا يعني أن لا ارتباط بين التربية والعقيدة بل أثبت القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أن الأخلاق أصل في دين الله.. فكان خُلق الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن.. وحُسن الخُلق أثقل في الميزان من كثير من الأعمال والنوافل.. وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الهشيم.. إن الإسلام كُلٌّ لا يتجزأ والإيمان الحق يتطلب أن يتخلق المرء بحسن الخلق مع العقيدة الصحيحة، أما الأخلاق الحميدة دون عقيدة صحيحة فإنها لا تنفع صاحبها يوم القيامة.

الأصول الثلاثة

منذ قرابة أربعة أشهر و(عبد الله) ـ شاب بدأ الالتزام بصلاة الجماعة في المسجد ـ يرافقني عقب كل صلاة حتى أصل إلى المنزل ثم يذهب إلى منزله.

ـ ما الذي تنصحني أن أفعله لكي أزيد التزامي؟!

ـ أقبِل على الله وتقرب إليه بالطاعات.

ـ تعني الصلاة والصيام.. أَم الدعوة.. أَمْ طلب العلم.. أَم القرآن؟!..

ـ القاعدة أن العبد يتقرب إلى الله بالواجبات أولاً.. ثم بالنوافل.. ويختار من النوافل ما يفعله وهو راغبٌ فيه.. بمعنى أنه يعمل النافلة الأحبَّ إلى قلبه حتى تؤثر فيه إيجابا... وتزيد من تقواه وإيمانه..

كنت في المسجد بين العشاءين ـ فشاركني (عبد الله) المجلس..

ـ أريد مزيد إيضاح..

ـ مثلاً.. إذا كنت تحب طلب العلم.. فهو أفضل العبادات.. وإذا كنت تحب حفظ القرآن... فهو نور في القلب.. وإذا كنت تحب الصيام فهو لا مثيل له.. وهكذا.. لكل واحد منا عبادة تؤثر فيه أكثر.. ولكن إذا جمعت بينها كلها بقدر ما تستطيع فهو الأفضل ولا شك أن علم التوحيد هو أشرف العلوم.. والعقيدة هي أهم ما يجب أن يتأكد المسلم أنه يتعلمها بطريقة صحيحة..

ـ لقد اشتريت كتبا ضمن (مكتبة الطالب).. فيها كتاب (شرح الأصول

الثلاثة) وكتاب (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد).. وكتاب (العقيدة الواسطية).. بأي كتاب أبدأ.. استدرك مقالته. وأريد أن أقرأ الكتاب تحت إشرافك وبمتابعتك..

- لا بأس.. والبداية دائما (الأصول الثلاثة)..

- لِمَ؟

- إنه كتاب صغير الحجم عظيم الفائدة يتناول قضايا أساسية في العقيدة..

- وماذا تعني الأصول الثلاثة؟

- هذا ما ستجيب عنه أنت في مجلسنا الأول إن شاء الله...

- هل تعني بالأصول قضايا الإيمان؟

- هذا سنتناوله في المجلس الأول إن شاء الله...

- مجرد فكرة.. مدخل لأبدأ القراءة على بينة..

وأمام إصراره أجبته..

- الأصول الثلاثة هي الإجابات على الأسئلة الثلاثة التي سيواجهها كل منا في قبره.

(من ربك؟).. (ما دينك؟).. (من نبيك؟) .. أو «**ما تقول في هذا الرجل؟**» (متفق عليه) .. هذه الأسئلة الثلاثة من لم يكن في الدنيا على علم صحيح وعمل صحيح تجاهها فإنه لن يتمكن من الإجابة في قبره عليها.. فالأصل الأول (معرفة العبد لربه) والأصل الثاني (معرفة العبد

لدينه).. والأصل الثالث (معرفة العبد لنبيه)... إذا عرف العبد هذه الأصول بطريقة صحيحة وفق ما جاء في كتاب اللّه والسنة الصحيحة وتعلم العقيدة الصحيحة وعمل بها ومات على ذلك فإنه يُرجى له الخير بعد موته.

- وهل قضايا الإيمان تدخل في هذه الأصول؟

- بالطبع فمن (معرفة العبد لدينه).. أن يعرف ما الإسلام وما الإيمان وأركان كل منهما..

- وماذا عن التوحيد.. أعني أنواع التوحيد: توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات؟

- هذه تدخل في باب (معرفة العبد لربه)..

- ومتى موعدنا القادم..

- يوم الثلاثاء بين المغرب والعشاء...إن شاء اللّه

الشهادتان قد لا تنفعان!

ـ المسلم عندما يعفي لحيته ويتركها تنمو كثة طويلة ينبغي أن يكون قدوة للآخرين ويلتزم أوامر الله ويتبع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.. وإلا فالأفضل له أن يحلقها!!!

ـ من أين أتيت بهذا الحكم الشرعي؟

ـ أنا لم آت بحكم شرعي ولكنه المنطق والعقل.

ـ بل نص كلامك (الأفضل له أن يحلقها).. هذا حكم شرعي.. في مصطلح الفقهاء لا يجوز تفضيل أمر على آخر إلا بدليل.

ـ نحن لا نتحدث بلغة الفقهاء.. ولا بأسلوب العلماء.. ولكن بكلام عامة الناس.. وأنت تفهم قصدي.

بدأ النقاش يأخذ طابع الجد.. وكان دوري الاستماع مع تهدئة الوضع أحياناً.. (أحمد).. و(صالح).. ابنا خالة.. مختلفان إلى درجة التناقض في معظم الأمور الظاهرية والفكرية.

ـ المشكلة أنك تتكلم عن الدين وقضايا الشريعة ولا تُلمّ بالقواعد الكلية ومبادئ الجدل الشرعي، وحتى نصل إلى شيء دعني أبيّن لك قاعدة ننطلق منها.. يلتزم كل منا أن يذكر الدليل على كل قضية يريد إثباتها.. والدليل يكون آية أو حديثا صحيحاً.. أو إجماعاً.. هل أنت موافق؟

ـ أنت تقول أن تارك الصلاة كافر.. معنى ذلك أن أحدنا مع أنه (يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) يخلد في نار جهنم ـ وفقاً لحكمك ـ والرسول صلى الله عليه وسلم بيّن أن من نطق بالشهادتين فهو مسلم.. فكيف يكون المسلم مخلداً في النار لأنه ترك الصلاة؟! بداية جيدة.. هات ما عندك يا أبا عبدالله..

ـ ابتداء يجب أن تعلم أن النطق بالشهادتين لا يكفي للدخول في الإسلام فقد أخبر الله عن المنافقين فقال.. ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ (المنافقون) قاطعه أحمد.

ـ أولئك المنافقون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.. نحن لا نتكلم عنهم بل عن مسلمين..

ـ أعلم ذلك.. ولكن لأثبت لك أن النطق بالشهادتين لا يكفي.. فالمسلم يجب أن ينطق بالشهادتين.. صادقاً بها قلبه.. ثم لا يأتي بما ينقضها بعد ذلك وإلا فالشهادتان لن تنفعاه شيئاً.

ـ هل لك أن توضح ما تقول؟!

ـ نعم.. مثلاً: رجل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ويصلي كل يوم خمس مرات في المسجد ولكنه يعتقد أنه عند الحاجة والكرب يجب أن يذهب ضريح أحد الأئمة أو السادة ثم يدعو.. (يا فلان أغثني وأعني.. واقض حاجتي عند ربك وربي)..

... وكان أحمد يصغي.. بينما تابع (بو عبدالله) حديثه..

ـ هذا يعتقد أن الإمام لمكانته عند الله ينفعه ويعينه على قضاء حاجته.. وغيره يذهب إلى قبر (الحسين).. و (السيدة زينب).. و(البدوي).. و(الرضا) و(زينب).. ولا تكاد تذكر بلداً إسلامياً إلا وفيه قبر يعظمه المسلمون.. يقربون إليه القرابين ويقصدونه للدعاء وقضاء الحاجات وتقديم النذور.. وهذا كله يناقض الشهادتين ويخرج المسلم من ملة الإسلام إلى الكفر والخلود في النار والعياذ بالله..

ـ أنا أحد المسلمين لا أعتقد بهذه الأشياء ولا أذهب إلى القبور ومعظم هؤلاء لا يعلمون أن عملهم هذا شرك بالله.. وورثوا كل ذلك من آبائهم وأجدادهم وواجب العلماء تبيين أمور الدين وتوضيحها لهم.

ـ هذا مثال واحد.. أن الشهادتين قد تُنقَضان.. مثال آخر.. رجل مسلم يصلي الصوات الخمس في المسجد هو على درجة من الثقافة والإطلاع ولكنه لا يعتقد أن اليهود والنصارى كفار.. ويرى أن لهم حرية الاعتقاد كما كفلها الله لهم.. ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾.. (البقرة: ٢٥٦) فعقيدته أن أهل الكتاب أصحاب دين سماوي ولا ينبغي تكفيرهم.. وكذلك لا يرى تكفير من لا يؤمن بوجود الله، فهذا لا تنفعه الشهادتان والصلاة والصيام.. لأن عقيدته نقضت إسلامه.. حيث إن (التوقف عن تكفير من كفّرهم الله كفر)... والله حكم على أهل الكتاب بالكفر ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ (المائدة: ٧٣)..

تراجع أحمد عن حدته في النقاش وأخذ يسأل مستفسراً...

- ولكن من الصعب تكفير المسلم...

- لا شك أنه عمل عظيم أن يجرؤ الإنسان على تكفير أحد.. ولا ينبغي أن يتساهل أحد في هذه القضية.. وفي المقابل لا ينبغي إدخال غير المسلم بالإسلام والشهادة له بالإيمان.. والحد الفاصل في هذا الأمر حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.. نقول ما قاله الله ولا نزيد ولا ننقص.. ونشهد بما شهد به رسول الله صلى الله عليه وسلم.. لا نزيد ولا ننقص.. ولمجرد العلم يجب أن أذكر أن نواقض الإسلام عشرة.. ومنها الاستهزاء بشيء من دين الله أو شعيرة من شعائر الله أو ثوابه أو عقابه.. فإن استهزأ أحد بشيء من شعائر الله كفر، وإن كان من المصلين في الكعبة المشرفة.

تحبيب الحق إلى الخلق

أغبط صاحبي على هدوئه ولين أسلوبه وابتسامته الدائمة... يشتد النقاش في المجلس فإذا تكلم كأنما صب الماء البارد على الجمر..

ـ يا أبا عبد الله... لا أدري كيف تحافظ على بشاشة ملامحك ولين أسلوبك في المواقف الساخنة..

نظر إلي وأرسل تلك الابتسامة الهادئة..

ـ إنه التعود.. منذ قرأت حديث النبي صلى الله عليه وسلم .. «**إنما الحلم بالتحلم**» (السلسلة الصحيحة).. عقدت العزم أن أتحلى بهذه الصفات التي ترى.. فإذا كان بإمكان المرء أن يكون حليماً.. رفيقاً.. حكيماً.. لم لا؟! فالأمر يحتاج إلى عزيمة وتذكرة وتعود... ثم ما الهدف من أي نقاش شرعي؟! أليس هو إظهار الحق؟! فأنت غايتك ليست إقامة الحجة على الخصم ولا سيما إذا كان من النوع المراوغ... وإنما غايتك تبيين أمر الله أحسن بيان.. فإن قَبِل الخصم.. وإلا فإن جمهور المستمعين يتعاطف مع الأسلوب الليّن.. وكما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم.. «**إن الرفق لم يكن في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه**» (السلسلة الصحيحة).

ـ هذه نعمة من الله عظيمة..

كنا في طريقنا إلى منازلنا بعد نقاش في إحدى الديوانيات..

ـ نِعَمُ الله ينالها العبد بالسعي والدعاء.. ودائماً أضع نصب عيني

أن من أعظم الغايات في الدعوة أن تحبب الله إلى عباده... نعم يجب أن يخاف الناس ويخشوا عذاب الله.. ولكن أن يحب العبد ربه إنها خصلة عظيمة... وربنا عز وجل... له الحمد والثناء في جميع الأحوال في الأولى والآخرة... حتى بعد أن يقضي بين جميع الخلق.. والملائكة وينتهي الأمر كله... يكون القول ﴿وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾ (الزمر).. أظن أنه إذا استطاع الدعاة أن يبينوا للناس.. الغالب لا الكل... أن الله يتحبب إلى خلقه.. ينعم عليهم رغم كفرهم.. يعطيهم مع إعراضهم... ينادي العصاة منهم.. ألا يقنطوا من رحمته.. يدعوهم ليتوبوا.. بل ويحب توبتهم.. ويقْبَلُها.. ويفرح بها.. ويؤجر عليها.. ويمحو بها ما مضى مهما كان.. حتى ولو كان إنكاراً لوجوده سبحانه وتعالى.. هذا الرب عز وجل.. يصبر على أذى من خَلَق.. رغم ما يصدر منهم.. ويمهلهم.. بل ويأمر رسله أن يصبروا على الكفار.. ويعاتب من يتعجل منهم.. مثل نبي الله (يونس).. ويأمرهم بلين الكلام مع الطغاة، كما أمر موسى وأخاه مع فرعون... فالله عز وجل.. لا يستحق إلا الحب الذي لا يكون فيه معه أحد.. سبحانه وتعالى.. فهو صاحب المنّة يعطي دون سؤال.. ويستحي أن يرد من يسأل.. ويجيب المضطر إذا دعاه وإن كان هذا المضطر جاحداً.. سبحانه يحب من يلح في الدعاء.. ويتحبب إلى خلقه منذ الولادة وحتى الغرغرة.. لا يعرض عن أحد.. ولا يوصد بابه.. يحب خلقه ويريد لهم الحياة الطيبة في الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة هذا الخالق سبحانه.. يتصف بكل هذا دون حاجة أو ضعف منه عز وجل.. ألا ينبغي أن نحبه ونبين ذلك للخلق حتى يحبوه؟!!

إذا ضل الولد

هاتفني في غير موعد اتصال.. قبل صلاة عصر الجمعة بساعة.. كان أمام منزلي بعد عشر دقائق.

ـ خير (بوحمد) ما الخطب؟

ـ لقد ضاقت بي الدنيا ولم أجد أحداً ألجأ إليه سواك.. فاسمح لي على إزعاجك في هذه الساعة..

ـ لا إزعاج.. ولا عليك.. ما الخطب؟

ـ في الواقع لا أدري من أين أبدأ.. اكتشفت قبل قليل أن ابني الوحيد وقع مع رفقة السوء.. رأيت صوراً له مع شباب وبنات في أوضاع شائنة.. وبصراحة أمه التي اكتشفت الأمر ولامتني وحمّلتني مسؤولية ذلك.

ـ وهل تحدثت معه؟

ـ كلا.. لقد غادر المنزل منذ أدرك أن والدته عرفت بالأمر.. وعندما هاتفته أجابني إنه لن يرجع إلى المنزل الآن.. حتى وإن كنت سأتبرأ منه!!

ـ إنا للّه وإنا إليه راجعون

رن هاتفه.. زوجته تخبره أنها ستخرج مع ابنه..

حمدت اللّه.. عندما أخبرني..

ـ هذه بداية جيدة.. أظنه يهتم لأمه ويراعيها أكثر منك..

ـ نعم.. إنه مرتبط بأمه أكثر مني.. رغم أنني منذ صغره حاولت اصطحابه إلى المسجد.. وتعريفه بالصحبة الصالحة.. إلا أنه لم يتقبل الأمر.. وبعد أن سافر للدراسة في أمريكا ترك أموراً كثيرة.. كصلاة الجمعة أحياناً..

ـ يا (أبا حمد).. أحدنا يجتهد في تربية إبنه ويدعو الله ويسعى أن يكون قدوة صالحة ولا يملك أكثر من ذلك؛ فالهداية بيد الله عز وجل.. ولسنا بأفضل من نبي الله نوح عليه السلام.. وهو من أولي العزم من الرسل وابنه كافر.. رفض أن يركب معه في السفينة.. نعم المرء يحزن.. ويتقطع قلبه كمداً.. ولكنه لا يملك إلا الصبر والدعاء.. لعل الله أن يهدي ابنه.. ولو بعد حين.

ـ ولكننا مسؤولون أمام الله.. أحدنا كان يرجو أن يرى إبنه رجلاً يعتمد عليه ويقر عينه بذريته في الدنيا.. ويأمل أن يكونوا سبب رحمته بعد موته بدعائهم وصلاحهم.. وأن يكونوا سبباً للشفاعة له يوم القيامة.. ثم يفاجأ بأن يرى ابنه الوحيد يتهاوى أمامه.. وتتلاشى أحلامه وتتبخر آماله التي بناها طيلة سنوات مضت..

ـ أما المسؤولية أمام الله.. فإن الله لا يحاسب أحداً إلا إذا لم يقُم بما يجب عليه، فإذا قام الأب بالنصح والإرشاد والأمر بما أمر الله به.. وكان قدوة صالحة لابنه.. وخادعه الولد.. وأظهر له أمراً وأخفى عكسه.. وصاحب رفقاء السوء دون علم والده.. فإن الله لا يحمّل أحداً وزر ما لم يفعل.. وتعلم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي

مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (القصص) هذا لحبيبه ورسوله صلى الله عليه وسلم.. ولأمته من بعده.. إن الله لا يهدي من لا يريد الهداية ويأخذ بأسبابها بنفسه.. أنت عملت ما أوجبه الله عليك.. فأديت الأمانة فلا تحزن على ما كان من ابنك.. من ناحية المسؤولية أمام الله... وأما بالنسبة لآمالك في ابنك فلعل الله أن يهديه.. وربما يعوضك ابناً لم تلده.. أعني أزواج بنات.. وأكثِر من الدعاء بصدق فإن الله يستجيب لعبده المؤمن ولو بعد حين.. وفي هذه الأثناء.. دعنا نفكر كيف نستطيع أن ننتشل ابننا من رفقاء السوء.. هذه الخطوة الأولى.. ثم نفكر فيما يلي من خطوات..

ـ «إنا لله وإنا إليه راجعون» في هذا الوقت توقف تفكيري.. وصدمت كأنما صفعني صفعة أفقدتني توازني.. حسبنا الله ونعم الوكيل..

ـ استعن بالله يا أبا حمد.. ولا تعجز.. ولا تقنط من روح الله.. ولا تدَع للشيطان إلى قلبك سبيلاً.. ولا تتخل عن ابنك.. وسيرجع إن شاء الله فإن فيه بذرة صالحة.. وأنا على يقين أن هذه البذرة ستنبت وإن تأخرت قليلاً وغطاها التراب.. ما هي إلا قطرات ماء قليلة لترتوي هذه الأرض وتنبت نباتاً صالحاً.. دعنا نذهب الليلة إلى ديوان رفقاء السوء لنرى ما الذي نستطيع أن نفعل معهم.

عقوق الوالدين

انتهز فرصة وجودي منفردا في المكتب بعد ساعات الدوام الرسمي.. دخل واستأذن أن يغلق الباب خلفه..

ـ خيراً؟ ما الخطب؟

ـ بصراحة بودي أن أكلمك في موضوع خاص.. إذا سمحت!!

ـ تفضل..

ـ لا أدري من أين أبدا.. ولكن أنا متأكد أنك لاحظت في الفترة الأخيرة أن درجاتي انخفضت كثيراً وأكملتها في الامتحان الأخير حصلت على أقل درجة في الفصل.

تسابقت الأفكار إلى ذهني ففي العشرين سنة التي قضيتها في التدريس تعاملت مع أعداد كبيرة من الطلبة الكبار.. ظننت أنه يريد أن يبرر تأخره لينال فرصة أخرى... أومأت برأسي ليكمل حديثه.

ـ بصراحة منذ شهرين وأنا على خلاف مع والدي.. حتى أنه قرر ألا يكلمني ولاينظر إلي في الآونة الأخيرة وأشعر بارتياح أنه فعل ذلك.. لا أريد أن أبرر تأخري في الدراسة.. أنا أتحمل هذه المسؤولية.. ولكن أريد أن أستشيرك من ناحية دينية شرعية.

كأنما أرجع إلي صوابي بحديثه.. تركته يتابع.

ـ والدي من النوع الذي يؤمن بالمثاليات.. يريد مني ومن إخواني وأخواتي أن نكون مثاليين في كل شيء.. يريد منا أن نعرف كيف نتصرف

وكيف نتكلم وكيف نتعامل ونحافظ على صلاتنا وديننا.. وإذا أخطأنا حاسبنا حساباً عسيراً.. فوقفت «في وجهه» ذلك اليوم لأنني بصراحة سئمت.. وتعبت.

ـ هذا شعور الآباء جميعهم... كلهم يريدون الخير لأبنائهم.. ويريدون أن يروا أبناءهم يعيشون أفضل حياة..

ـ ولكن والدي يحاسبنا على كل شيء وفي كل وقت: لِمَ تأخرنا؟ ومع من كنّا؟ وكيف قضينا الوقت؟ ولماذا نضيع أوقاتنا وأموالنا؟ ولماذا نهمل سياراتنا.. أسئلة لا تنتهي..

ـ لِمَ تنظر إليها أنها محاسبة؟ لِمَ لا تنظر إليها على أنها حرص.. ونصيحة!! هل يلجأ والدك للعقاب؟ بمعنى هل يضرب؟ أو يحرمكم من الخروج... أو المصروف.. هل يعاقب بأي شكل من الأشكال؟

ـ كلا.. ولكننا نريد أن نتصرف بحرية..

ـ أظن أن هذا الذي تتكلم عنه مشكلة كثير من الأبناء.. يسمعون أصدقاءهم ويعصون والديهم.. يرتاحون لقرنائهم ولا يرتاحون لآبائهم.. ولو عرف الأبناء حق آبائهم عليهم.. لما ضجروا من أوامر الآباء ونصائحهم..

ـ هل تعني أني أنا المخطئ؟

ـ كلا.. لم أقل ذلك ولكن معظم الأبناء يقصرون في حق والديهم.. والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ (الإسراء) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم «**لا يدخل الجنة عاق**» (السلسلة الصحيحة).. ويقول صلى الله عليه وسلم «**دعوة الوالد على ولده مستجابة**» (السلسلة الصحيحة) ... وأولى الناس بصحبة المرء والداه.. لا أصدقاءه ولا إخوانه... وأسوأ ما يمكن أن يحصل للإنسان أن يُتوفى والِداه أو أحدهما وهو عنه غير راض.. ولا سيما الأم.. فإن حقها أعظم.. ومن اعتقد أنه سينال رضا الله عز وجل بكثرة صلاة أو صيام أو دعوة إلى الله دون رضا الوالدين فإنه دون شك مخطئ.

ليتك والدي.. ليتك ولدي

لاحظت أن أحد شباب المسجد متعلق بي أكثر من أقرانه.. يترقب مجيئي.. يجالسني بعد الصلاة.. يختلق أسئلة لمجرد الحديث معي.. يماشيني إلى المنزل.. سايرته في تصرفاته، وسهلت له المهمة حتى عرض علي العشاء معا.. لبَّيت دعوته.. تركته يتحدث عن كل شيء.. بعد تردد وسكوت.. قال همساً: ليتك والدي..

لم أتفاعل مع العبارة رغم عدم توقعي لها..

ـ لماذا تقول ذلك؟

ـ والدي.. كثير السفر.. قليل المكوث في البيت.. لا يهتم بالصلاة.. بل لا يصلي.. همُّه أن نتفوق في دراستنا.. وفي المقابل يغدق علينا الأموال.. سؤاله الأول لوالدتي.. هل الأولاد موفقون في دراستهم؟ .. هي أيضا لا تهتم إلا بدراستنا.. لا تهتم من نصادق ولا مع من نخرج نهاية الأسبوع.. تعرف بعض صديقات شقيقتي.. ولكنها لا تعرف أحداً من أصدقائي..

ـ كل هذه الأمور لصالحك؟

ـ كلا.. إنهم لا يريدونني أن ألتزم بالشريعة.. لا سيما والدي.. غضب كثيراً عندما رجع من رحلته الأخيرة ليجد أنني أطلقت لحيتي بعض الشيء.. أخذ يستهزئ بي ويصفني بأبشع الأوصاف.. بل وأمرني بحلقها صراحة.. وأمي وافقته على استحياء.. ولو علم أنني أخرج من البيت لصلاة الفجر.. لأغلق الأبواب.. ولكنه لا يمانع أن أسهر إلى الفجر في الشاليه مع رفاقي..

صراحة.. فاجأني أحمد.. هذا الشاب الهادئ الحساس.. المتفوق دراسياً، الذي لا تفوته صلاة في المسجد، هذا الشاب الذي كل من عرفه أحبه.. يعاني هذه الأمور من والديه.. لم أدر كيف أتفاعل معه..

ـ هل تريدني أن أتحدث إلى والدك؟

ـ كلا..

قالها بإصرار وتابع..

ـ إني لا أستبعد أن يطردك عند الباب.. بل ولن يتورع أن يُسمعك بعض الكلمات البذيئة..

ـ إسمع يا أحمد.. لا أظنك محقاً بوصف والدك بهذه الأمور.. أنت شاب شديد الحساسية.. وربما أدى بك ذلك أن تبالغ في موقفك ضد والدك.. إنه لا يوجد والد لا يريد لولده الخير.. بل كل أب يتمنى أن يصبح ولده خيراً منه.. لا عليك إلا أن تصبر.. وتحسن إلى والديك.. وفي النهاية.. هو والدك وأنت ابنه.. فاستمر في الدعاء له وطاعتك له..

ـ ولكن ألم يكن الأفضل بي أن يكون والدي من الذين يحرصون على الصلاة ويأمرون أهليهم بها.. ويفرح إذا التزمت بشريعة الله.. ووالدتي من اللواتي يربين أبناءهن وبناتهن على طاعة الله..

قاطعته..

ـ هذه أمنيات كل إنسان.. ولكن أحدنا لا يدري أين الخير له.. الله تبارك وتعالى يختبرنا بآبائنا.. وأبنائنا.. أحدنا قد يظن أن وضعه ربما

يكون أفضل لو كان له أب غير أبيه أو ابن غير ابنه.. ولكن الحق خلاف ذلك.. أحدنا يتعامل مع الوضع الذي أوجده الله فيه.. أباً كان أو ابناً.. ولنا في الرسل خير مثال.. نوح ـ عليه السلام ـ ابتلاه الله بابن كافر، ورسول الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ابتلاه الله بأب كافر.. أحدنا يؤدي واجبه تجاه ابنه أو أبيه، ويدعو الله.. ويصبر حتى يلقى الله وقد أدى الأمانة تجاه أبيه وابنه..

غاية التشريع

صاحبي لا يعلم من الدين إلا ما ورثه عن والديه... لا يصلي... إلا ربما جمعة بين فترة وأخرى وفي شهر رمضان... يصوم... بمعنى أنه يمتنع عن المفطرات الحسية وقد يصلي التراويح... حج قبل عامين، يظن أنه على خير لأنه لا يؤذي أحداً ولا يظلم... معاملاته تحكمها القوانين الدنيوية... والمصالح المادية...

ـ لِمَ تنقد فكري وطريقتي... مع أني لا أشرب الخمر ولا أقع في الزنا... نعم أنا مقصّر في الصلاة وفي بعض الأمور الأخرى ولكن أنا خير من كثير من الناس...

ـ المشكلة يا (سامي) أنك تفتقد الأساس...

استغرب ردي... وقوة نقدي...

ـ ماذا تعني... أي أساس؟!

ـ الأساس الذي تتحرك من خلاله... دعني أوضح لك... أول قضية يجب أن يحققها الإنسان هي أن يعلم يقيناً... عقيدة... أن الله لم يخلقه إلا لعبادته... فالأساس هو تحقيق العبودية لله عز وجل... العبودية... بمعنى... الإنصياع... الطاعة التامة مع تمام الحب وتمام الخوف... بمعنى اليقين بالموت والجنة والنار والحساب...

قاطعني...

ولكن أليس من الشريعة أن يعرف الإنسان ما ينفعه فيعمله... ويعرف ما يضره فينتهي عنه؟

- العقيدة تقول إن ما جاء في الشريعة هو ما ينفع الإنسان وما حرمته الشريعة يضر الإنسان... سواءً إقتنع الإنسان بذلك أم لم يقتنع...

- وكيف يعمل الإنسان شيئاً وهو غير مقتنع به؟!

- الإنسان يقنع نفسه بالأصل الأول... الذي هو أن الله يعلم ما ينفع عباده... فشرع لهم ما فيه خيرهم وحرم عليهم ما فيه ضررهم... فإذا أقنع المسلم نفسه بهذا الأصل لا يحتاج إلى أن يقنع نفسه بكل جزئية... لماذا حرم الخمر..؟ ولماذا شرع الوضوء...؟ ولماذا أباح النكاح بأربع...؟ ولماذا شرع الطلاق؟... ولماذا جعل الورث بهذه الطريقة...؟ وهكذا يناقش كل جزئية... كل هذه التساؤلات إجاباتها واحدة... ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (تبارك)... والمرء إذا حقق في عقيدته الغاية الأولى من خلقه وهي عبادة الله تعالى؛ فإن الأمور الناتجة من هذه الغاية لا تكون موضع شك بالنسبة له...

- تعني أن المرء يروّض نفسه على طاعة الله... وقول ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٥)... في كل أوامر الشريعة حتى تنصاع نفسه ويصبح هواه تبعاً لما جاءت به الشريعة؟

- نعم هذه هي الغاية...

حدود المخلوقات في الضر والنفع

أهم قضية جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، بل وجميع الرسل من قبله هي «التوحيد» وهي رسالة جميع الأنبياء.. يقول عز وجل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء) لذلك أوجب ما ينبغي أن يتعلمه كل مسلم هو «التوحيد الصحيح» ويبذل ما يستطيع من جهد ذهني وقلبي وبدني ليصل إلى هذه الغاية.

- بصراحة أراك تتشدد في مسألة التوحيد...

هكذا علق صاحبي على حديثي تجاه ما يقع فيه المسلمون من قضايا تخدش التوحيد بل وتنقضه أحيانا.

- هل تعلم أن الخطأ في التوحيد ليس كالخطأ في الصلاة التي هي عماد الدين.. بعض الأخطاء في التوحيد تخرج المرء من الإسلام إلى الكفر، وإن كان يصلي، ويصوم، أما إذا كان التوحيد صحيحا، ولم يقع في الشرك، فإنه يبقى مسلما، وإن وقع في كبائر الذنوب.

لم يجب صاحبي.. تابعت حديثي.

- دعني أعطيك مثالا.. ماذا لو قلت لك إن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يضر ولا ينفع ولا يهدي ولا يشفع.

إلتفت إلي مستنكرا مستغربا، كأنني تجرأت على مقام الرسول صلى الله عليه وسلم، فتابعت:

ـ هذا ما قاله الله عز وجل ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (يونس). وقال عز وجل ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (القصص: ٥٦).. وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (البقرة)..هذه القضايا وأخرى كالمغفرة والجنة والنار لا يملكها أحد إلا الله، ولا تكون لأحد إلا بإذن الله، فإذا أراد أحد أن ينال شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه يأتي بالأسباب لنيل الشفاعة، ويدعو الله أن يرزقه شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم الشفاعة.

قاطعني:

ـ وما الفرق إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيشفع بإذن الله، فكل شيء بإذن الله.

ـ كالفرق بين الإسلام والكفر، والتوحيد والشرك، الأول أن تسأل الرسول أن يشفع لك،والرسول (عليه الصلاة والسلام) لا يُدعى ولا يُسأل.. ولا يملك الشفاعة حتى تسأله إياها. والثاني أن تسأل الله وتدعوه أن يرزقك شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ـ ولكن ألا يشفع الشهيد في سبعين من أهله؟

ـ نعم بإذن اللّه، أي أن اللّه يأذن للشهيد أن يشفع في أناس محددين من أهله، يختارهم اللّه ممن يستحقون الشفاعة، لا أن يشفع الشهيد وفق هواه وإرادته من دون اللّه.

كأنني نقلت له معلومة لم يسمعها من قبل...

ـ قضايا العقيدة دقيقة جداً ولا مجال فيها للاجتهاد والآراء والعقل والمنطق والأهواء. كلها جاءت واضحة بيّنة في كتاب اللّه وفي سنة الرسول صلى اللّه عليه وسلم، وعلى المرء أن يبذل ما يملك من جهد في الوصول إلى العقيدة الصحيحة لأنها السبيل للنجاة يوم القيامة.

قال موافقاً:

إذا كان الرسول صلى اللّه عليه وسلم لا يملك هذه الأمور، فمن باب أولى ألا يملكها أحد سواه!

التقوّلُ بغير علم!

في أحد الإجتماعات كنا نناقش شروط القبول في الجامعة.. دافع (د.علي) بقوة عن وجهة نظره بضرورة خفض نسبة القبول..

إستمر النقاش أطول مما يجب.. أراد أن يلقي بورقة أخيرة.. قال بثقة: وفي النهاية.. لدينا مسؤولية أخلاقية تجاه هؤلاء الطلبة، ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم: «**من سئل عن علم فكتمه فإنه سيلجم لجاما من نار**»؟! (صححه الألباني – مسند الإمام أحمد)

لم يكد ينهي كلامه قاطعته معترضاً.. غاضباً..

ـ هذا ليس موضوع الإستشهاد بهذا الحديث..

لم يجبني.. وكان يحاورني في المجلس.. همست إليه..

ـ لا ينبغي أن تستخدم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في غير أماكنها..

ـ كيف هذا لا ينطبق هنا؟

ـ سأبيّن لك لاحقا..

بعد الاجتماع.. ترافقنا في الخروج.

ـ من الخطورة بمكان أن يذكر أحدنا آية أو حديثا مستشهداً به دون أن يكون قد اطلع على شرحه، واستمع إلى تفاصيل تطبيقه من

العلماء.. فإن هذا الاستشهاد - وإن كان عن حسن نية - يدخل في (القول بغير علم). ولا يخفى عليك أن (القول بغير علم) من أعظم الذنوب عند الله عز وجل.. وفيه تعد على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم.. والمؤمن مطالب ألا يتكلم إلا بعد أن يعلم يقينا أنه على حق وفق ما جاء في كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

لم يظهر (د. علي) أي بادرة اتفاق معي.. بل على العكس بدا وكأنه لا يريد أن يسمعني. فضلاً عن أن يقبل ما أقول... رد علي..

- إذن لا نستطيع أن نتكلم بشيء من الدين باستخدام العقل والمنطق مع أن الله قال عن القرآن.. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ (القمر).. وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ (يوسف) فإذا كنا نحن العرب لانستطيع أن نتكلم عن القرآن والأحاديث، فكيف بالأعاجم الذين لايتكلمون العربية مطلقا؟

- المسألة ليست مجرد كلام.. نحن ورغم أننا عرب نتكلم العربية إلا أننا لا نتكلم تلك اللغة الفصحى التي كان العرب يتكلمون بها، والتي نزل بها القرآن.. ومع ذلك دعني أضرب لك مثلا بسيطا.. ألا تعيب على من يطبق معادلة هندسية ويشرحها دون أن يعرف حدود تطبيقها وشروط استخدامها؟!

- بالطبع... لاينبغي له ذلك.

- فالقرآن والسنة أَوْلى.. لا يجوز لك أن تستشهد بآية أو بحديث إلا بعد أن تعرف متى يمكن التطبيق وبأي شروط وما الذي يقيدها وغير

ذلك من القواعد الأولية في دين اللّه.. ألم تقرأ عن أبي بكر الصديق وهو يبيّن للناس أن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ (المائدة) ليس كما يبدو للقارئ من ظاهر الآية، بل المعنى أنك يجب أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فإن فعلت ذلك فقد أبرأت ذمتك ولا يهمك بعد ذلك ما يفعله الآخرون..

سكت صاحبي ولم يتفاعل معي.. وكنا قد دخلنا المصعد..

ـ على أية حال حديث النبي صلى اللّه عليه وسلم في التحذير من كتم العلم أنه لمن سئل عن قضية.. أو أُستشير في مسألة.. وهو يعلم حكم اللّه فيها أو كان موجودا في مكان يجب أن يقال فيه بحكم اللّه وهو يعلمه، ثم يكتمه لمصلحة يريدها أو قرابة يداريها بها أو غير ذلك من أمور الدنيا، فإن هذا حسابه عسير عند اللّه عز وجل.. فمن تعلم شيئا من دين اللّه وجب عليه أن يبلغه، ولا سيما في الظروف التي لا يجوز فيها (تأخير البيان) حتى لا يضيع الحق.. أما سياسة القبول في الجامعة.. فليست مما ينطبق عليه هذا الحديث.

الجهل بالطريق.. يتعب

كنت في طريقي إلى محاضرة الساعة العاشرة صباحا.. أخبروني أن فاروق سقط أرضاً فاقداً وعيه وهو في طريقه من المكتب إلى مواقف المركبات وأنه نقل إلى المستشفى في سيارة إسعاف.. بعد المحاضرة.. أخبروني أنه تُوفي ؛ ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾.. كنت أخبر صاحبي عن هذه الحادثة بينما كنا في الطريق إلى المقبرة للمشاركة في جنازة والدة أحد معارفنا..

ـ لو أن أحدنا اتعظ وتوقف عن الظلم.. والحقد.. والحسد.. والقطيعة.

ـ إن الاتعاظ الحقيقي أن يتعلم الإنسان ويعمل.. يتعلم كيف «يتعامل» مع الموت إن وقع... وإذا كان هو المصاب فإن استعداده للأمر يهون عليه الطريق.. فإني أعرف أناساً ممن يحملون شهادات الدكتوراة. لا يعلمون شيئا عن لحظات الموت وسكراته.. ولا عن خروج الروح.. ولا عن القبر.

يقول أحدهم.. (إذا أتاني منكر ونكير.. أستاذنهم في إحضار شيخ معي وإلا سأرفض دخول الامتحان!!) ويقول آخر (سأتأكد أن بجانبي جهاز الكمبيوتر فأجيب عن كل الاسئلة).. هؤلاء ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾.. (الروم).

ـ استغفر الله العظيم.. هذه المقولات كفرية لا ينبغي أن تصدر عن مسلم!!

ـ لن أكون مبالغاً لو أخبرتك أن غالبية الناس يجهلون هذه الأمور.. بل ويجهلون أبسط قواعد العلاقة بالله عز وجل.. يقولون (العلم نور) .. ويطبقون ذلك في الإدارة والحاسوب والاقتصاد والصناعة.. إلخ ولا يطبقون ذلك فيما هو أهم وأولى: علاقة الإنسان بخالقه..

أحدهم لا يحسن الوضوء أو الصلاة.. يعلم من الصيام الإمساك عن الطعام والشراب والجماع .. ويعلم شيئاً إسمه زكاة... أما الحج.. فموعده فيما بعد.. والحلال والحرام.. معياره العقل والمنطق.. والله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿٢٢﴾﴾ (الملك) لاشك أن الذي يعيش حياته على بينة وعلم يرتاح في دنياه وأخراه وإلا يتعب في دنياه وأخراه.. وصلنا المسجد قرب المقبرة.. وقد أقيمت الصلاة.. لم ندرك الركعة الأولى.. بعد اتباع الجنازة والصلاة عليها والدعاء لها بعد الدفن وكانت هناك أربع جنائز قفلنا آيبين..

ـ وهل يأثم الإنسان على عدم العلم؟!

ـ لا أحب أن يكون السؤال بهذه الصيغة.. العلم بالدين نور للإنسان في حياته وبعد مماته.. العلم الشرعي.. يورث الطمأنينة في القلب.. وراحة البال.. يعرف المرء كيف يتصرف في حال الرخاء والشدة.. في حال المرض والصحة.. في حال الغنى والفقر.. في حال العجز والقدرة.

العالمُ حاله كله خير.. لأنه بالعلم يحقق الإيمان وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم «**عجبا لأمر المؤمن فإن أمره كله خير إن أصابته**

سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» (متفق عليه).. وليس هذا إلا للمؤمن.. بل ويعرف كيف يتصرف إذا وقع في المعصية.. يحاول معه الشيطان.. ولكن هيهات!! فالعلم بالنسبة لأحدنا أهم من الطعام والشراب.. فلا ينبغي أن نسأل هل نأثم إذا لم نتعلم.. بل نشعر أنه لاسبيل لنا في حياة هانئة إلا بالعلم الشرعي!! فكيف نغفل هذا الأمر ونهمل هذا الجانب الأساسي من حياتنا؟!

العلم.. الذي هو عبادة

صاحبي يبذل جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً في العمل ربما امتد مكثه في الجامعة إلى صلاة المغرب، أما التزامه اليومي فإلى ما بعد صلاة العصر.. وربما يصلي الظهر والعصر جمعاً في المكتب أو في المنزل.. كلما حدثته عن ضرورة عدم التهاون بأداء الصلاة في وقتها أجابني:

ـ العمل عبادة.. وطلب العلم من أعظم العبادات..

ـ من أين أتيت بهذه القاعدة؟

ـ أليس في الحديث.. «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع**» (**صحيح الترغيب والترهيب**)؟!

ـ هل ينطبق هذا الحديث على العلم الذي تبحث عنه؟

ـ لِمَ لا؟ أليس علماً نافعاً للبشرية؟!

ـ يا (أبا محمد) إن أحدنا يعلم يقيناً أنه يمكث في هذه الدنيا قليلاً ثم «يغادر» وإذا أردنا أن نستشهد بأحاديث أو آيات فينبغي أن ننتبه إلى المعنى الذي أراده ربنا وبينه رسولنا صلى الله عليه وسلم.. إن «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**» (**المعجم الكبير - حسنه الألباني**).. والعلم عبادة وجهاد.. ولكن هذا ليس العلم الدنيوي الذي يُلهي عن العبادة المفروضة.. العلم الذي ينسيك الصلاة أو يجعلك تؤخرها عن وقتها هذا ذنب وليس عبادة.. والقاعدة هي أن العلم الواجب هو ما يُرفع به الجهل عما يحتاجه الإنسان.. فعلم الوضوء واجب وكذلك الصلاة وكذلك الصيام والحج لمن أراده.. وقبل هذا علم العقيدة والتوحيد الذي يعلِّم الإنسان كيف يحقق أركان الإيمان..

ـ إذن نتخصص في كلية الشريعة؟!

قالها منكراً معترضاً..

ـ كلا غير مطلوب منك أن تكون عالماً شرعياً تجلس للفتوى.. وإنما مطلوب منك أن ترفع الجهل عمَّا تحتاج أن تمارسه من عبادات يومية.. وإذا بطلت صلاتك بسبب جهلك بأحكام الصلاة فإن الجهل ليس عذراً يوم القيامة.. النسيان عذر.. ولكن الجهل لا.. ثم إن العلم الواجب لا يشغلك عن العلم الدنيوي الذي تحتاجه لكسب عيشك.. ولكن أن تتعلم دقائق الأمور الدنيوية ولا تعرف مبطلات الإيمان ومبطلات الصلاة والوضوء مع أنك مطالب بها.. فهذا.. لا أدري.. قلبٌ للأولويات!!!

ـ وما هو المطلوب مني برأيك؟

ـ هو ليس رأيي بل أمر الله تعالى.. وإنما أنقله إليك من باب النصيحة.. مطلوب منك أن تعمل لآخرتك قدر ما تعمل لدنياك وأكثر.. أما الإنشغال بالدنيا عن الآخرة فهذا تبديل للذي هو أدنى بالذي هو خير.. وربما تميز المرء في الدنيا وكسب ولكن ما فائدة ذلك إذا خسر الآخرة.

ـ هل تعني أن العلماء الذين اخترعوا الكهرباء وصنعوا المركبات وابتكروا طرق التبريد لينعم الخلق جميعاً بمن فيهم المسلمون.. هؤلاء المخترعون لا أجر لهم عند الله؟!

ـ هؤلاء العلماء نالوا ما عملوا لأجله.. بقي صيتهم.. وخلدت ذكراهم.. وكرم بعضهم في حياته بجوائز علمية كجائزة نوبل.. ونالوا الشهرة.. فنالوا ما أرادوا.. فليس لهم شيء عند الله عز وجل.

ساعة لله... تزيد الإيمان

كعادتي كل يوم تقريباً كنت أتريض بعد صلاة العصر في الممشى الموازي للبحر...

لفت نظري في نهاية الشوط الرابع أحدهم.. وضع كرسيه المصنوع من القماش في ظل مركبته، وجلس قبالة البحر... لفت نظري لأني ظننت أنني أعرفه.. قررت أن أنهي الشوطين الأخيرين ثم أتحقق من الأمر... وفعلاً كان هو صاحبي.. بعد التحية...

ـ ما الذي أجلسك هنا اليوم؟

ـ قررت أن أقضي ساعة كاملة أذكر فيها الله عز وجل..

ـ نِعم ما تفعل... أكمِل تسبيحك وألقاك في صلاة المغرب إن شاء الله.

ـ لقد انتهيت.. خذ قارورة الماء البارد هذه ما زال أمامنا متسع من الوقت لصلاة المغرب.

قبلت دعوة صديقي...

ـ بالفعل يحتاج أحدنا أن يحافظ على إيمانه.. يقوّيه بهذا النوع من الأعمال.

ـ لقد شعرت بالأسى أن قلبي لا يتحرك مع آيات العذاب... وجلدي لا يقشعر من ذكر النار... أقرأ القرآن ولا أشعر أنه يصل إلى قلبي.. خشيت على إيماني، قررت أن أفرّغ نفسي ساعة كل يوم لله

عز وجل... يومٌ أذكر اللّه.. وآخر أصلي.. وثالث أزور المقبرة.. ورابع أحضر درساً.. وهكذا.

أريد أن استرجع حلاوة الإيمان التي كنت أشعر بها.. ولذة العبادة التي كنت أتمتع بها.. أستغفر اللّه.. لقد أخذتني الدنيا شيئا فشيئاً.. حتى كلما راودتني فكرة أن أتقرب بها إلى اللّه عز وجل غلبتني فكرة أني مشغول ولا وقت لدي.. مع أني أقضي أكثر من ثلاث ساعات أمام التلفاز كل يوم.. ما بين متابعة الأخبار.. ومشاهدة مباراة.. أو متابعة برنامج.. وإذا قررت الصلاة أو أي عبادة للّه شعرت أن لا وقت لدي.. أو أني مشغول في شيء ما...

ـ هذا شعورنا جميعاً... والشيطان لا يدع أحداً إلا أتاه.. من ناحية العمل.. أو الأهل.. أو الأولاد.. أو غير ذلك من مشاغل يلهي بها الإنسان عما ينفعه.. فيصده عن ذكر اللّه وعن الصلاة وعن كل خير.. أما إذا جلس أمام التلفاز استرخي ونسي كل هذه المشكلات.

ـ لذلك قررت أن ألزم نفسي بهذه الساعة كل يوم... وأن أنوعها.. فاليوم مثلاً لذكر اللّه.. غداً إن شاء اللّه.. صلاة ولكن ليس بعد العصر.. ولكن بين المغرب والعشاء... وبعد غد المقبرة بعد صلاة العصر لمدة ساعة، وبعده قراءة قرآن بين العشاءين... وهكذا عسى أن ينفعنا هذا العمل في المحافظة على إيماننا...

ـ أسأل اللّه أن يعينك وأن يتقبل منك.

ـ جزاك اللّه خيراً.. لم لا تشاركني هذا البرنامج؟!

ـ ظننت أنك تريد أن تكون وحدك منفرداً تأتي هذه العبادات بينك وبين الله عز وجل!

ـ نعم.. هكذا كان الأمر... ولكن لا بأس أن نتعاون أنا وأنت.. فإنك لست ممن يتحدث عن السياسة أو الرياضة أو المشكلات الإجتماعية أو الإنتخابات، فأظن أننا سنعين بعضنا بهذه الطريقة... والصحابة كان بعضهم يقول لبعض: (تعال نؤمن ساعة)... فيقرأون القرآن ويذكرون الله ليزداد إيمانهم...

ـ إن شاء الله أكون معك في الأيام التي تتطابق فيها أوقاتنا.. والآن علي أن أغادر حتى أتمكن من الاستعداد لصلاة المغرب.

وودعت صاحبي.. أدرت المذياع فإذا به يقرأ تلك القراءة التي تهز كل من يتدبر القرآن.. وهو يقرأ.. ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾. (الحشر).

الإيمان قول وعمل

أعجب من بعض الملتحين الذين يوادّون من حادّ اللّه ورسوله.. يعلمون أنهم يستهزئون بالدين ويسخرون من شريعة اللّه.. ومع ذلك يقربونهم ويتقربون إليهم لينالوا شيئا من عرض الدنيا.. وما ذاك إلا لمرض في قلوبهم اللّه محاسبهم عليه.

- كيف تدخل العمل في الإيمان وقد أخبر الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) بأن «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره من اللّه**» (متفق عليه).

- الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) أدخل العمل في الإيمان كما قال في حديث شُعب الإيمان «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**» (صحيح مسلم) وهكذا فهم السلف أن العمل من الإيمان فقالوا (الإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية).. وهكذا جاءت تسمية الصلاة إيمانا.. في قوله عز وجل.. ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (البقرة) أي صلاتكم إلى المسجد الأقصى قبل تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة.

- ولكني سمعت أن المرء لا يكفر بالمعاصي.. ولا بترك الواجبات؟!

- هذا صحيح.. عقيدة أهل السنة أنهم لا يكفّرون صاحب الكبيرة.. ما لم يستحل العاصي هذه الأمور.. فإن استحلها فإنه يكفر وإن لم يرتكبها.. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ

بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ (النساء).. وثبت في الأحاديث المتواترة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن الله ليخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان.. (متفق عليه) ومن الإيمان الحُبّ في الله والبغض في الله وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين.

ـ وهل هناك أعمال يكفر المرء إذا وقع فيها؟!

ـ نعم.. من الأعمال التي يكفر صاحبها.. السجود لغير الله.. إهانة ما عظّمه الله.. كمن يطأ المصحف مثلاً.. وكمن يستهزئ ويسخر من شعائر الله.. وكمن يسب الدين أو الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكمن ينكر أن هناك يوماً آخر ومعاداً.. فهذه كلها يكفر بها المرء كفراً أكبر يخرج به من ملة الإسلام إلى الكفر ويكون جزاؤه الخلود في نار جهنم.

ـ وماذا عن تارك الصلاة والصيام والزكاة؟

ـ أما من ترك هذه العبادات أو غيرها جاحداً لوجوبها فإنه يكفر بإجماع الأئمة.. ومن ترك الصيام أو الزكاة مقراً بوجوبها ولكن لا يريد أن يصوم تهاونا أو استثقالا فإنه لا يكفر بإجماع الأئمة.. أما من ترك الصلاة وهو مقر بوجوبها فقد اختلف العلماء في قضية تكفيره.. من رأى كفره استند إلى أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل «**العهد بيننا وبينهم الصلاة من تركها فقد كفر**» (صححه الألباني).. وأحاديث أخرى كثيرة.. ومن العلماء من رأى أنه لا يكفر بترك الصلاة أيضا استنادا إلى أحاديث صحيحة.. وهذه القضية موضع خلاف بين علماء الأمة منذ القدم.

ـ وكيف يمكن لأحدنا أن يأمل دخول الجنة وهو لا يأتي بالأعمال الصالحة والآيات التي تذكر الإيمان تقرنه بالعمل الصالح ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ٢٩﴾ (الرعد)؟

ـ إن أحوال الناس يوم القيامة كثيرة جدا .. منهم من يكون مع أوائل من يدخل الجنة وجوههم كالبدر.. وهؤلاء يدخلون بلا حساب ولا عذاب.. ومنهم من يدخل بعد شيء من الحساب قد يقّصُر أو يطول «**ومن نوقش الحساب فقد عذب**» (**البخاري**).. ومنهم من يدخل النار ما شاء الله لفترة قد تطول أو تقصر وفي عذاب قد يشتد أو يخفف.. تحت مشيئة الله.. ثم يدخل الجنة.. ومنهم من يدخل الجنة بعد أن يكون قد تحمص في النار وذاق من ألوان العذاب وهذا لم يعمل خيراً ولكنه مات على التوحيد ولم يقع منه شرك.. أما المشركون فلا يخرجون من النار أبدا.

الشرك والكفر

ـ عندما أبدأ بقراءة قضايا العقيدة.. أشعر بأن الكلمات صعبة.. والعبارات معقدة.. والقضية لا يمكن فهمها.. ولا أدري.. هل إحاطتنا باللغة العربية ضعيفة لهذه الدرجة بحيث لا نفهم ما سطره الأولون..أم أن الأمر صعب بذاته.. ودائما ينتهي بي الأمر إلى أن أغلق الكتاب بعد ثلاث أو خمس صفحات!!

ـ لا أظن أن المشكلة في اللغة.. أعتقد أن الصعوبة التي يجدها الكثيرون في قضايا العقيدة سببها جهلهم بألف باء قواعد فهم الاعتقاد.. معنى التوحيد والشرك والعبادة.. فلو بذل أحدنا الجهد اليسير في فهم القواعد الأولية للعقيدة.. فلن يتعب في تحقيق المطلوب.

ـ إنك تبسط الأمور أكثر من اللازم.. دعني أضرب لك مثالا.. أنا أعرف أن الكفر هو عبادة الأصنام أو إنكار وجود اللّه.. وأن من قال (لا إله إلا اللّه) فهو مسلم ولا نستطيع أن نكفره.. ومع ذلك أقرأ في بعض الكتب.. «هناك فرق بين الكفر والشرك».. ويدخل في تفاصيل تتعبني..

صاحبي متعب في النقاش.. واسمه (متعب).. كنت وإياه في الطائرة لإنجاز عمل في الإمارات..

ـ رأيت العبارة التي ذكرت.. فيها خلط ونقص وعموم.. عندما يقول العلماء إن (الكفر والشرك) كلمتان إذا اجتمعتا اختلف معناهما وإذا تفرقتا تطابق معناهما.. (كالإسلام والإيمان).. فالكفر قد يكون بمعنى

الشرك والشرك قد يكون بمعنى الكفر.. وهذا النقاش اللغوي لا تعقيد فيه ولا صعوبة.. ولكن تعال إلى قولك (من شهد ألا إله إلا الله) فهو مسلم.. هذه عبارة ناقصة بلا شك.. فأنت تعلم أن المنافقين كما ذكرهم الله يشهدون.. ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ (المنافقون).. فالعبرة ليست بقول اللسان.. لأن المنافقين يقولون ذلك وهم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ (النساء)، ولكن يجب أن يأتي المرء بالشهادتين صادقاً من قلبه ولا يأت بما ينقضهما..

ـ وما الذي يمكن أن ينقض الشهادتين إذا قالهما المرء صادقا؟

ـ الشرك ينقض الشهادتين.. وأعني الشرك الأكبر..

ـ هل هناك شرك أكبر وآخر أصغر؟

ـ نعم.. قسم العلماء الشرك إلى نوعين أكبر وأصغر.. أما الأكبر فهو ما يتضمن صرف العبادة لغير الله أو جحد شيء مما أوجب الله من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة كالصلاة والصيام..

قاطعني..

ـ هات أمثلة لما تقول حتى نفهم الشرك الأكبر؟

ـ من جحد وجوب الصيام.. يكفر أو يشرك شركاً أكبر.. من جحد حرمة الخمر.. يكفر كفراً أكبر.. من دعا غير الله أو نذر له تقرباً وعبادة.. كل هذا يكفر كفراً أكبر.. بمعنى أنه لا تنفعه الشهادتان.. ويخلد في نار جهنم والعياذ بالله!!

ـ هذه قضية خطيرة.. وصعبة..

ـ بل هي واضحة بيّنة.. نعم إنها خطيرة لذا وجب تعلمها حتى لا يقع المرء في الشرك الأكبر فلا تنفعه أعماله الصالحة لأن الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال مهما كانت صالحة وكثيرة.. لقول اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ (الزمر)..

ـ فهمنا الشرك الأكبر.. وهل هناك قضايا أخرى إذا عملها المرء يكفر كفراً أكبر..؟

ـ نعم.. الاستهزاء بالدين والسخرية والاستهانة بما عظمه اللّه.. كمن يستهين بالمصحف.. أو يبول عليه مثلاً أو يطأه أو يقعد عليه إهانة له.. فإنه يكفر كفراً أكبر ولا تنفعه الشهادة ويخلد في نار جهنم أبداً إن لم يتب..

ـ وماذا عن الشرك الأصغر؟

ـ الشرك الأصغر لا يُخرج المرء من ملة الإسلام ومع ذلك أمره خطير فعقابه يوم القيامة أشد من عقاب الكبائر كالسرقة والخمر.. وعلى العموم الشرك الأصغر هو ما ثبتت تسميته شركاً في الأحاديث الصحيحة.. كالرياء.. والحلف لغير اللّه..

الشؤم في ثلاثة

ـ بعض الأحاديث تبقى عالقة ‌في ذهني إما لأنني لم اقرأ لها شرحاً وافياً أو لأنها توافق أمراً يحدث لي..

كنت وصاحبي ‌في طريقنا لزيارة مريض ‌في المستشفى.. تابع صاحبي..

ـ من هذه الأحاديث (الشؤم ‌في ثلاثة.. ‌في المرأة والدابة والمسكن)... بين فترة وأخرى أفكر ‌في معنى الحديث رغم أني سمعت أحدهم يشرحه إلا أنه لم يروِ الغليل...

ـ هذا الحديث صحيح وجاء بعدة روايات لو اطلعت عليها جميعاً لربما قرب المعنى.. من هذه الروايات.. عن الشؤم «**إن كان ففي المرأة والفرس والمسكن**» (متفق عليه).. و‌في رواية إن كان ‌في شيء.. و‌في رواية.. «**لا طيرة والطيرة على من تطير وان يكن ‌في شيء ففي المرأة والدار والفرس**» (السلسلة الصحيحة).. ولو أخذنا الحديث ‌في إطاره الصحيح... وهو إطار التوكل على الله... فإن المؤمن مطلوب منه أن يتوكل على الله ويعلم يقيناً أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه ولا ينفع ويضر إلا الله ولا يعطي ويمنع إلا الله... فلا يتشاءم من شيء ولا يدخل قلبه هذا الشعور بل يحب الفأل الحسن ويستبشر بالخير دائماً.. وإذا هَمّ بأمر كان متردداً فيه... صلى ركعتين وأتى بدعاء الاستخارة ـ ثم توكل على الله.. لا يتراجع ولا يتخوف من وساوس تَعرِض له.. ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ (آل عمران)..

ـ هذا تمهيد جميل... ومعنى الحديث؟!

ـ تكملة للتمهيد... المؤمن يعلم أن الأشياء... المخلوقات.. لا نفع فيها ولا ضرر من حيث ذواتها.. بل الله هو الذي خلق النفع والضرر... فلا نُرجع الأضرار للمخلوقات.. كل شيء بأمر الله وقدره... والآن إلى الحديث.. لما كانت هذه الثلاثة هي أكثر الأشياء إلتصاقاً بالإنسان فإنه قد يدخل قلبه شيء إذا تضرر في أحدها وتكرر الأمر... فالمؤمن يطرد هذا التشاؤم بالتوكل على الله ومن تطيّر بها يكون شؤمها عليه..

وقد يكون شؤمه سبباً لحلول المكروه كما يكون التوكل سبباً في دفع الشر والضرر.. وإذا تمكن المرء من دفع التشاؤم في هذه الأشياء الثلاثة فإنه أقدر على دفعه من باقي الأشياء... ولذلك نبه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الثلاثة خصوصاً.

توقفنا عند موظف الاستعلامات نسأل عن مكان المريض... تابعت حديثي ونحن متوجهون إلى الجناح...

ـ وقال بعض العلماء إن الوسواس الذي يخطر للإنسان من هذه المخلوقات الثلاثة يكون غريزياً... لذلك يجب دفعه حتى لا يتعاظم ويدخل قلب المؤمن أن ذوات هذه الأشياء تنفع وتضر.. فإن لم يستطع أن يطرد هذا الوسواس بالتوكل على الله والرجوع إلى الإيمان بأنه لا ينفع ولا يضر إلا الله عز وجل له أن يتحول عن الدار أو يطلّق المرأة إذا كانت ذات خلق سيئ أو يستبدل الدابة ليدفع الضرر الأكبر الذي هو خدش العقيدة بالضرر الأصغر... وقالوا شؤم الدار الجار السيئ، وشؤم المرأة

سوء الخلق، وشؤم الدابة ألا يغزو عليها في سبيل الله... فيتخلص من مصدر هذا الوسواس حتى لا يتعاظم في قلبه... مع أن الأَوْلى والأكمل ألاّ يتطير من هذه الأشياء أو غيرها ويتوكل على الله... وله أن يبذل الأسباب قبل أن يملك شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتى لا تكون مصدراً لوسواس التشاؤم... فلا يشتري داراً إلا وجاره طيب الخلق.. ولا يتزوج امرأة إلا ذات الدين الحَسَن، ولا يشتري دابة إلا ويريد بها وجه الله... فيتخلص من أسباب الشؤم الذي قد يعتريه نتيجة عدم أخذه بالأسباب الشرعية... وعموماً (لا طيرة في الإسلام)..

لباس التقوى

أهتم ألا أخرج من المنزل دون أن أتفقد ثيابي.. انتبه جاري في العمل لبقعة في ثوبي.

- هل جلست على كرسي غير نظيف؟ هناك بقعة صغيرة خلف ثوبك..

شعرت بشيء من الإحراج.. خاصة أن الطلبة لا يفوّتون شيئاً وإن لم يتكلموا أمامك.. حاولت أن أغسلها.. دون جدوى.. قبل أن أبدأ المحاضرة.. وبانتظار استكمال العدد.. سألتهم:

- هل تعرفون أجمل ثوب يمكن أن يلبسه الإنسان؟!

- ثوب الأخلاق الحميدة.. ثوب الحياء.. ثوب الدين.. تنوعت الإجابات إلى أن قال أحدهم:

- بصراحة.. الثياب قضية شخصية، وينبغي أن يلبس المرء ما يشتهي، لا كما يقولون «كل ما تشتهي وإلبس ما يشتهي الناس».. المرء يلبس حسب نفسيته.. ولكننا في مجتمع لا يرحم.. يشتهي أحدنا أن يلبس الشورت أحيانا.. ولكن.

- دعوني أذكر لكم آية من كتاب الله.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الأعراف).. هذه الآية

ذكرت ثلاثة أنواع من اللباس.. ما يواري العورة.. والريش.. وقيل هو كل ثوب يستر ما فوق العورة.. ثم لباس التقوى.. والثالث خيرها.

طلب مني أحمد أن أسترسل في الشرح.. استأذنتهم أن نأخذ خمس دقائق من وقت المحاضرة.

ـ أحدنا يحرص أن يتجمل بثيابه.. لأجل أن يظهر بهيئة محترمة.. تعكس شخصيته وربما ننفق الأموال.. والأوقات لأجل ذلك.. خاصة النساء.. وهذا كله لأننا نتعامل مع بشر، ويغفل كثير منا أن يجمل داخله وقلبه.. بالصلاح والتقوى.. ولباس القلب التقوى.. مع العلم أن الله ينظر إلى القلب ولا ينظر إلى الهيئة الخارجية.

قاطعني..

ـ ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم بيّن «**إن الله جميل يحب الجمال**» (متفق عليه).

ـ هذا صحيح.. وبالطبع المقصود بالجمال هنا ما كان موافقا للشرع لا الجمال بمفهوم النساء اليوم الذي هو (تبرج) لا يرضاه الله فضلاً عن أن يحبه.. أقول لا بأس أن يهتم الإنسان بأن يظهر بهيئة جميلة ولكن لا يغفل عن باطنه.. بل يهتم بمخبره أكثر مما يهتم بمظهره.

كان الحديث في شعبة الأولاد بعد أن تم فصل الجنسين في بعض فصول الجامعة.

ـ وهل هناك حد لا ينبغي تجاوزه في الإنفاق على الثياب وتوابعها.. من أدوات التجمل.. كالساعة والحذاء وغير ذلك.

ـ الإعتدال مطلوب.. وكل ينفق على قدر طاقته.. ولكن لا ينبغي لمسلم أن يلبس ليظهر بمستوى أعلى من مستواه.. فذلك من الزور كما وصفه الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، بل الفقير المستكبر من الثلاثة الذين لا يكلمهم اللّه يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (أصله في المسند – صححه الألباني).. المسلم يحرص على نظافة ثوبه.. وجماله.. ولا يظهر بما ليس فيه ولا يبالغ ولا يهتم لنظرة الناس أكثر من اهتمامه بما يبدو عليه أمام اللّه عز وجل.

تعظيم الشعائر من التقوى

كنت أنتظر ضيفاً في أحد الفنادق.. إقترب مني أحدهم.. ناداني باسمي مستفسرا.. صافحته دون أن أتعرف عليه.. بادرني.. كم مضى.. خمس عشرة سنة؟

لم أتفاعل بطريقة صحيحة لأنني لم أتعرف عليه ولا أذكر الشكل فضلا عن الاسم ـ أنا سعيد أحمد.. كنا معا في الجامعة.

لم تسعفني ذاكرتي.. تبادلنا (الكروت) الشخصية على أن نعاود الاتصال في المساء حيث إنه كان على موعد.

أتى صاحبي.. خرجنا لتناول العشاء.. أخبرته عن (سعيد).. وصاحبي متخصص في علم نفس الأطفال.

ـ عادة يمكن تذكر الأشكال أما الأسماء فالإنسان لا يذكر عادة إلا من كان لهم دور رئيس في حياته.. ولكن ما هذه الصدفة.. توجد في الفندق لأقل من عشر دقائق لتلتقي إنسانا لم تره منذ خمس عشرة سنة.

ـ هل تؤمن بالصدفة؟!

ـ بل أؤمن بالقدر.. وأن لقاءك به كان مقدراً و(مرتباً).. ولكن عندما أقول (صدفة) فذلك من باب عدم الترتيب المسبق من البشر.. وأظن أن هذه اللفظة (لا شيء فيها) بهذا المعنى من حيث العقيدة؟

ـ نعم.. أصبت.. وها نحن ندرك العشر الأول من ذي الحجة.. أيام

هي خير الأيام.. ثواب العمل الصالح فيها يتضاعف.. أضعافاً لا يعلمها إلا الله.

ـ ولكن معظم الناس لا يتعامل معها بخصوصية.. ولاسيما أولئك الذين يستمرون في أعمالهم أو الذين لم ينووا أداء فريضة الحج.

ـ هذا من الغفلة ـ نسأل الله العافية ـ الله يخبرنا بأن هذه الأيام فيها من الأجر ما ليس في غيرها.. فمن التقوى ومن الإيمان أن يعظم المسلم هذه الأيام ويتعامل معها كما يحب ربنا ويرضى.. وإلا فإن في إيمانه وتقواه خللاً وضعفاً.. وكذلك (الأضحية) من الشعائر التي ينبغي أن يعظمها المسلم ويؤمن بثوابها.

ـ ولكن هذه الأمور (صغيرة).. ولا يرى كثير من الناس أنها تدل على الإيمان أو التقوى..

ـ لقد غفل هؤلاء عن قول الله ـ عز وجل ـ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (الحج)... فالأضحية يقدمها الإنسان قربة إلى الله إيمانا بأن أجرها يقع عند الله بمكان قبل أن يصل دمها الأرض.. وأنها تكون يوم القيامة أجراً وثواباً.. فيحسن المرء اختيارها ويذبحها أو يشهد ذبحها.. ويأكل منها ويطعم ويهدي.. يرجو بكل ذلك الثواب من الله.

ـ معظم الناس يتبع الطريق الأسهل فبدل أن يذبح يتصدق أو يرسل المال لإحدى اللجان في الداخل أو الخارج فيذبحون عنه ويقول أولئك أولى باللحم مني..

ـ هذا له أجر.. ولكن ليس كمن ذهب واشترى وذبح وأكل وأطعم.. فإن هذا قام بما يجب عليه كاملاً وكان أكثر اتباعا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وفعل ذلك تعظيماً لهذه الشعيرة من شعائر الله.. فالأجر ليس سواء وكما قال الله عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ٣٢ ﴾ (الحج).

فالتقوى في القلب ولكن دلائل هذه التقوى هي الأعمال التي يؤديها الإنسان ومن هذه الأعمال أعمال قلبية كتعظيم العشر الأول من ذي الحجة وتعظيم شعيرة الذبح.. وأعمال بدنية كالصلاة وصيام عرفة والذكر وقراءة القرآن.. وغير ذلك من الأعمال الصالحة.

الأمان في الدنيا

سألتني.. لماذا يتدين الإنسان؟

ـ أعتقد أن الدافع الأول لإلتزام المرء بتعاليم الدين هو الإيمان بأنه سيموت وسيحاسب بعد موته، أولاً في قبره، ثم يوم القيامة.. الجميع يوقن أنه ميت.. فمن عرف ما الذي يحصل بعد الموت وصدق به.. سيستعد له.. وعلى قدر العلم والإيمان يكون الإعداد.

ـ ولكن بعض الناس يطبق أوامر الله يريد الجنة!!

ـ وهذا لا يناقض ذلك.. لأن نتيجة المساءلة والحساب الجنة أو النار..

ـ معظم اللاتي أعرفهن يلتزمن دين الله لأجل الشعور بالأمان في الدنيا.. بمعنى أنهن يخشين أن تنزل مصيبة بهن أو بمن حولهن من أقارب لا سيما الأبناء.. يخفن الأمراض والعاهات ويعتقدن أن «إحسان العلاقة» بالله يحمي من هذه المصائب.

ـ هذا مفهوم غير صحيح.. بل على العكس أخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الصحيح.. «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل يبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**» (السلسلة الصحيحة)، فالمؤمن مبتلى بكافة أنواع المصائب في نفسه وماله وعياله.. نبي الله أيوب ابتُلي سنين طويلة

بالمرض.. حتى نادى ربه.. ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (الأنبياء)، نبي الله إبراهيم ابتُلي بأن يذبح ابنه.. وأُلقي في النار قبل ذلك.. وهكذا جميع الأنبياء وأفضلهم نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم).. حياته سلسلة من المصائب والابتلاءات.

- ولكن هؤلاء النساء يعتقدن أن الذي يلتزم أوامر الله ويراعي حقوق الناس يحفظه الله من كل سوء ومن كل شر.. وكلما تصدقن قلن (دفعة بلاء عنا وعن أبنائنا)..

- إن الذي يظن أن الالتزام بأوامر الله سيفتح له أبواب الرزق في الدنيا وسيحفظه من المصائب لا شك أنه مخطئ ويُخشى على هؤلاء أن ينقلبوا على أعقابهم إذا هم ابتلوا بالشدائد في الدنيا.. إن الدافع الصحيح لالتزام أوامر الله ينبغي أن يكون نيل رضا الله.. والسعي لاتقاء غضبه وعذابه.. سواء عاش المرء حياة رغد أم حياة شدة.. فإن «**أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر**» (متفق عليه).. هكذا المؤمن في حياته.. لا تزيده المصائب إلا قُرباً لله، ولا النعيم إلا شكرا لله.. ويعلم يقيناً أن هذه الدنيا وما فيها ليست جزاء على عمل ولا ثواباً على طاعة.. فإن عجل الله له شيئا من النعيم علم أن ذلك بشرى عاجلة للمؤمن ولا يفتن بها.. وإن أَخّر الله عنه الثواب وناله من المصائب والشدائد علم أن ذلك تكفير للذنوب ورفعة للمنزلة.. فالمؤمن بين (الصبر والشكر).

- ولكن ينبغي أن يورث الإيمان الشعور بالأمان.. أليس كذلك؟

- نعم.. طمأنينة القلب والشعور بالأمان إلى جنب الله لا يكون نتيجة

عدم وقوع المصائب.. وإنما يكون نتيجة الإيمان بالله والثقة والرضا بقضائه عز وجل.. إن المؤمن مهما نزلت به من شدائد.. كموت ولده.. ومرض بدنه واحتراق بيته.. ومع ذلك تراه أشد تمسكا بأوامر الله.. ولا يقول يوما.. (لِمَ أنا يا رب؟).. (ولماذا تبتليني وتترك غيري؟).. هذا الشعور بالطمأنينة لا يأتي إلا بالإيمان والثقة بالله والرضا بقضاء الله.. ولا يمكن شراء هذا بأموال الدنيا كلها.. هذه الثمرة هي التي ينبغي أن يسعى لها المرء بإلتزامه أوامر الله تعالى وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أما ألا يقع على المؤمن مكروه ولا تصيبه مصيبة فهذا أبعد ما يكون عن المؤمن.. (لأن المؤمن مبتلى) بكل أنواع البلاء ولا خيار له إلا الصبر والرضا بقضاء الله..

المؤمنون.. حقاً!

تسعة أيام مضت لم يتوقف المطر.. يقل أحيانا.. ويكثر أحياناً.. حتى تذمر بعضهم من كثرته!!

جمعنا المغرب والعشاء وقررنا التجول في المركبة.. في الجو الممطر..

- هل سمعت آخر الفتاوى حول الغناء؟!

- مع الأسف حاولت الصحافة أن تظهر أن جمهور العلماء مع إباحة الغناء.. والمسألة خلافية.. ولجأت إلى الصور والمانشيتات لإبراز ما تريده، وخلط بعضهم بين الغناء.. والمعازف.. وسكت آخرون..

- لقد صرنا في زمن يبحث فيه الناس عن أي شيء للتهرب من الدين الحق.. لا يفكر أحدهم فيما يرضي الله.. ولا في التنافس على الاستزادة مما ينفع في الآخرة..

يريدون أغلى بضاعة بأبخس ثمن.. والله تبارك وتعالى يدعونا للتنافس في الآخرة والارتقاء في الإيمان.. بل وصف بعض المؤمنين (بالإيمان الحق) تمييزا لهم عن غيرهم..

- ماذا تعني بالإيمان الحق؟!

- أعني قول الله تعالى واصفا بعض عباده.. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (الأنفال).. وكذلك قوله عز وجل.. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ (الأنفال).. والآيتان من سورة الأنفال.

ـ هل هذا حصر للمؤمنين حقا، أعني من لم يتصف بهذه الصفات لا ينال هذا الوصف؟

ـ نحن نعتقد أن الإيمان يتفاوت بين الناس.. بل عند الرجل الواحد.. يزداد إيمانه وينقص.. وهذه الدرجة (المؤمنون حقا) درجة عالية في الإيمان.. أصحابها هذه صفاتهم.. وهذا لا ينفي الإيمان عن الآخرين كما قال عمرو بن مرة.. (أُنزل القرآن بلسان عربي مبين.. كقولك فلان سيد حقا وفي القوم سادة.. وقولك فلان تاجر حقا وفي القوم تجار).

ـ والآية الأخرى من سورة الأنفال؟

ازداد المطر بحيث اضطررنا إلى التباطؤ حتى ٣٠ كم/ ساعة.. وبالكاد نرى أبعد من أربعة أمتار أمام مركبتنا..

ـ في الآية الثانية يخبر الله عن المهاجرين والأنصار.. ووصفهم بالإيمان الحق وذلك لما لهم من مكانة عند الله عز وجل.. فقد لاقوا في سبيل الله ما جعلهم يستحقون مرتبة (المؤمنين حقا).. وكذلك الذين نصروهم من أهل المدينة..

انقطع حديثنا قليلا.. اضطررنا للتوقف تحت أحد الجسور بانتظار أن يخف هطول المطر..

- وهل في مقابل (المؤمنين حقا).. (الكافرين حقا)؟

- لقد ذكر الله هذا الوصف في موضع واحد في كتابه.. من سورة النساء.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ (النساء).. وهذه الآيات نزلت في اليهود والنصارى الذين يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض.. ويسعون في إثبات ذلك واتخاذ سبيل ذلك.. هذا هو (الكفر الحقيقي).. الذي يستحق العذاب المهين من الله عز وجل.

النذر لا يأتي بخير

إقترب مني صبيّ ربما في السابعة.. ظننت أنه يريد السلام علي.. كما يفعل كثير من الأولاد الصغار الذين يرتادون مسجدنا.. مد يده.. هممت أن أصافحه فإذا به يسلمني ورقة.. ودون أن يتكلم أدار ظهره وانصرف.. وضعت الورقة في جيبي.. بعد هدوء المسجد اطلعت عليها.. فإذا فيها السؤال التالي:

نذرت أن أذبح كل شهر ذبيحة لمدة عام كامل إذا شفى اللّه ابني وخرج من المستشفى بعد حادث فظيع أبقاه في غيبوبة لفترة أسبوعين.. فقد شعرت في اليوم الثاني للحادث أن الأطباء عاجزون عن عمل أي شيء وأخبروني أنه إن تجاوز الغيبوبة سينجو.. فدعوت اللّه وصليت ونذرت وأنا امرأة فقيرة أعيش وثلاث بنات وطفل صغير... توفي زوجي منذ ست سنوات ولا أدري ما أفعل مع نذري»..؟ وذيلت الرسالة.. أختكم أم محمد.. وتركت رقم هاتف منزل..

اطلع على الرسالة (مشعل).. أحد الشباب الذين لا تكاد تراه إلا في المسجد..

- يجب أن تفي بالنذر.. أليس كذلك؟

- إن استطاعت.. وإلا فعليها كفارة يمين.. ولكن لا أدري لِمَ يلجأ معظم الناس إلى النذر إذا وقعت لهم مصيبة وأرادوا من اللّه بعزيمة أن يخرجهم منها..

ـ هكذا تعلمنا.. إن المؤمن يلجأ إلى الله في الأزمات..

ـ يلجأ إلى الله بالدعاء.. بالقربات والطاعات.. لا بالنذر.. فالرسول (صلى الله عليه وسلم) قال: «**إن النذر لا يأتي بخير.. وإنما يستخرج من مال البخيل**» (صححه الألباني) ..

أبدى مشعل استغرابه بتعابير وجهه..

ـ أول مرة أسمع هذا الحديث.. يعني النذر حرام؟

ـ كلا.. وإنما قال بعض العلماء إنه مكروه.. أما الذين يقدمون النذور إلى الأضرحة والقبور والمشاهد.. فهؤلاء يرتكبون شركاً أكبر.. شركاً يخرج المسلم من ملة الإسلام إلى ملة الكفر والخلود في النار..

ـ ولكن الله مدح الذين ينذرون.. ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الإنسان).

ـ هذا وصف للمؤمنين بأنهم إذا نذروا وَفَّوْا.. فهو مدح للوفاء وليس للنذر.. وعموماً دون اشتراط.. (إذا حصل كذا افعل كذا).. وكلاهما ينبغي أن يتجنبه الإنسان.. فلا حاجة لأحد أن يلزم نفسه بشيء لم يلزمه الله به.. ولكن عقيدة العامة (إنهم إذا نذروا لله شيئا فإن الله يحقق مرادهم).. وهذا خطأ.. فكأن هؤلاء يتصدقون لله إذا حصلوا على شيء من الله وإلا فلا.. وهذا (بخل) مع الله عز وجل ولذلك قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) «**إنما يستخرج من مال البخيل**».. أما قضاء الله فسيقع سواء نذر الإنسان أم لم ينذر.. والصحيح أن الذي ينفع مع

قضاء الله هو الدعاء.. الدعاء الخالص لله.. دون إشراك أحد أو اللجوء إلى قبر أو ضريح.. الدعاء الصادق من القلب المؤمن المضطر يستجيب الله له.. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ (غافر).. ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ (النمل).. ولم يقل الله «انذروا لي».. فالواجب على المسلم اجتناب النذر مطلقاً.. وإذا نذر وجب عليه الوفاء.. وإذا عجز كفّر بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو عتق رقبة ولا يلجأ لصيام ثلاثة أيام إلا إذا عجز عن هذه الثلاث كلها.

مخيّر أم مسيّر؟

منذ فترة طويلة وأنا أتجنب نقاش بعض زملائي في العمل وذلك أنهم يحاولون التلاعب بالألفاظ تارة.. وتارة الاستعانة بالنظريات الفلسفية واللا منطقية.. حتى أن بعضهم لا يتورع عن التلفظ بعبارات كفرية!!

مع بداية العام الدراسي تخلصت من كل الأوراق والملفات والمراسلات.. لم يبق على الطاولة أمامي إلا المجلد الثامن من فتاوى ابن تيمية.. دخل أحد أهل الجدل.. وبعد التحية.. أخذ مجلسه...

ـ كانت إجازة طويلة ممتعة.. حضرت جلسات نقاشية في إحدى الندوات الدينية في طنجة.. ودار نقاش طويل حول «مشيئة الله ومشيئة العبد».. ورجع السؤال التاريخي.. هل الإنسان «مسير أم مخير؟»..

ـ لا أحب هذا النوع من النقاش.. ولكن دعني اسألك سواء وصلنا إلى إجابة على سؤالك هذا.. أم لم نصل.. «هل الإنسان محاسب أم غير محاسب؟».. هذا هو السؤال.. فما اجابتك؟

ـ الإنسان دون شك محاسب ومن قال غير ذلك فقد كفر ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾.. (المؤمنون).

ـ جميل... هذه عقيدة راسخة عند جميع المسلمين... فما قيمة الجدل حول المشيئة.. إذا كان الإنسان سيحاسب على عمله فهو مسؤول والحساب بعده جزاء. جنة أو نار... ولا مصير ثالثا... أليس كذلك؟!

ـ بلى.. ولكن المرء يريد أن يوجد إجابات لجميع الأسئلة التي تخطر على باله..

ـ بعض الأسئلة إجابتها الإيمان بالله... كما أخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول.. من خلقك؟ فيقول الله.. من خلق السماوات والأرض؟ فيقول الله.. من خلق الشمس والقمر؟ فيقول الله.. ثم يسأله الشيطان فمن خلق الله..؟ فمن وجد ذلك فليقل لا إله إلا الله رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً**» (متفق عليه).

ـ من باب العلم ماذا قال العلماء في سؤالنا؟

ـ وهل ترضى بما قاله العلماء.

ـ نعم.. لقد سمعت كثيراً وأريد المزيد.

ـ بفضل الله بين يدينا المجلد الثامن من الفتاوى اقرأ أنت ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية.

أخذت المجلد تصفحته.. أخذ الأمر شيئاً من الوقت حتى وجدت بغيتي في الصفحة (٢٤٠).. ناولته اياه.. وطلبت منه القراءة.

ـ «والذنوب مثل أكل السم فهو إذا أكل السم مرض أو مات فهو الذي يمرض ويتألم ويتعذب ويموت والله خالق ذلك كله وإنما مرض بسبب أكله وهو الذي ظلم نفسه بأكل السم فإن شرب الدواء النافع عافاه الله» ثم تابع.. إلى أن بلغ..

«ومن قال: لا مشيئة له في الخير ولا في الشر فقد كذب ومن قال إنه يشاء شيئاً من الخير أو الشر دون مشيئة الله فقد كذب بل له مشيئته لكل ما يفعله باختياره من خير وشر وكل ذلك يكون بمشيئة الله وقدرته فلابد من الإيمان بهذا وهذا ليحصل الإيمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد والإيمان بالقدر خيره وشره وإن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.. ومن احتج بالقدر على المعاصي فحجته داحضة ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول..»

توقف صاحبي...

ألفاظ تخدش العقيدة!

رواد مسجدنا متقاربة أعمارهم وثقافاتهم.. وكثيرا ما يدور النقاش بينهم حول قضايا في العقيدة دون الوصول إلى شيء فيحكمونني بينهم لآتيهم بالدليل من القرآن والسنة..

بعد صلاة العصر انفض الناس بعد أن انتهينا من القراءة اليومية.. اتخذ (أبو فهد) و(أبو أحمد) مجلساً في إحدى زوايا المسجد وطلبا مني أن انضم إليهما..

ـ سألني أحدهم هل يجوز أن يقول الإنسان (أنا لا أحب المتدينين).. (وأنا لا أحب الملتحين) ويكرر هذه المقولة.. حتى اشتهر بها؟!

ـ كلا.. لا يجوز أن يقول المسلم ذلك.. لأن المفروض في المسلم أن يحب المرء لتدينه.. ولاتباعه هدي الرسول (صلى الله عليه وسلم).. وهذا من قضايا الإيمان.

ـ ذكرنا ذلك.. ولكنه يصر أن (الملتحين يكذبون).. و(الملتحين يسرقون ويرتشون).. قلنا له لا تعمم.. فيجيب كل الذين تعاملت معهم هذا شأنهم!!

ـ صاحبكم هذا على خطأ فيما يقول.. إن المسلم يحب في أخيه الطاعة ويكره فيه المعصية.. أما البغض المحض فلا يكون إلا للكافر.. ربما غفل صاحبكم عن قول الله تعالى.. ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ (ق).. وعن حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) لابن مسعود.. «**وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**» (الترمذي والنسائي –

صحيح).. وحديث الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) «**إن المرء ليلقي بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالاً تهوي به في قعر جهنم سبعين خريفا**» (صحيح مسلم).. ولقد حرص الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) أن يعلم أصحابه الكلام الصحيح ولا سيما فيما يمس العقيدة.. فعندما سمع أحدهم يقول ما شاء اللّه وشئت يا محمد؟ قل.. «**أجعلتني لله ندا؟! قل ما شاء اللّه وحده**» (صححه الألباني).. وعندما سمع إحداهن تقول لطفل تُوفى (عصفور من عصافير الجنة).. غضب وقال «**من هذا المتألّي على اللّه؟!..**» (صحيح مسلم) وقال صلى اللّه عليه وسلم «.. **من قال لصاحبه (يا كافر).. فقد باء بها أحدهما**» (صحيح مسلم).. فمن الخطأ أن يقول الإنسان إني أكره الملتحين أو المتدينين.. ليقل أنا أكره الكذابين والمرتشين.. وقد يجتمع في الإنسان حب وبغض لشخص واحد.. يحب فيه الطاعات ويكره فيه المعاصي.. (وهذا معنى الحب في اللّه والبغض في اللّه).

ـ لا أريد أن أذكر اسم هذا الذي يصر على رأيه.. ولكننا حاولنا معه بكل ما أوتينا.. فازداد إصرارا على قوله..

ـ على رغم أني لا أعرف من تعنون ولكني أجزم بأنه غير ملتح

ـ هو كذلك..

ـ إذن هذا يريد أن يبرر لنفسه عدم إطلاق اللحية فجعل الصفات الذميمة فيهم حتى كرههم.. وأرى أن يناقشه أقرب الناس له فيما بينه وبينه.. ويبين له أن إطلاق اللحية من هدي النبي (صلى اللّه عليه وسلم).. ولا ينبغي بغض الإنسان بسبب أنه ملتح.. وإذا لم يتبع المرء سنة الرسول فلا ينبغي أن يقع في إثم أعظم ليبرر لنفسه عدم تطبيقه لهذه السنة..

إلى جنان الخلد.. خطأ!!

عاتبني صاحبي على عدم تفاعلي الإيجابي مع حادث وفاة أحد زملاء العمل في الدور الثاني.. حيث أصابته سكتة قلبية توفي على أثرها..

معظم من سمع عن نبأ سقوطه مغشياً عليه وحضور الإسعاف أسرع للاطمئنان عليه..

ـ وعندما ذهبت أنت ماذا رأيت؟!

ـ لم أر شيئا فقد تجمهر الناس حوله بينما يقوم المسعف بمحاولة استعادة تنفسه ونبضات قلبه.. ونقله إلى السيارة.. ولكنها مشاركة.. وتصرف تلقائي تجاه شخص نعرفه..

ـ جميل أن يشارك المرء معارفه أفراحهم وأتراحهم ويواسيهم في مشكلاتهم ولكن هناك مواقف تحتاج من الإنسان شيئاً أكبر من التصرف التلقائي.. والتأثر اللحظي.. عندما يتوفى الإنسان فإنه بحاجة إلى من يصلي عليه ويدعو له ويتصدق عنه.. وينفذ إرادته في الخير.. وليس بحاجة لمن يكتب عنه (إلى جنان الخلد)..

قاطعني..

ـ وما الضير أن يكتب عنه (إلى جنان الخلد)..؟ ففي هذه الكلمات عزاء لأهله وشد من أزرهم وإعانة لهم على تخطي أزمتهم..

ـ هناك الكثير من المحظورات في هذه العبارة.. أولا .. في هذه العبارة

تألّ على اللّه.. بمعنى هذا الذي يقول أو يكتب أن المتوفى (في جنان الخلد).. هذا حكم بالجنة للميت.. وهذا شأن من شؤون الله عز وجل لا يملكه أحد من المخلوقات.. إسمع الحديث..

قالت أم العلاء: فاشتكى عثمان عندنا فمرضته حتى توفي وجعلناه في أثوابه فدخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلت رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وما يدريك أن الله أكرمه». قالت: قلت: لا أدري بأبي وأمي يا رسول الله فمن؟ قال: «أما هو فقد جاءه والله اليقين والله إني لأرجو له الخير وما أدري والله وأنا رسول الله ما يفعل بي». قالت: فوالله لا أزكي أحداص بعده. (البخاري ومسلم)

وعن عائشة أم المؤمنين قالت: «**دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه قال أو غير ذلك يا عائشة**» (مسلم)..

استدرك علي..

- ولكن القصد أننا نرجو أن يكون من أهل الجنة؟!

- عبارة (إلى جنان الخلد) لا تخدم هذا القصد.. وحيث إن هذه العبارات تدخل في باب الاعتقاد وجب تصحيحها وإن كانت النية سليمة والقصد صحيحاً.. وهناك محظور آخر في هذه العبارة.. وهو أن قائلها أو كاتبها إنما يريد إسماع أقرباء المتوفى الأحياء.. وهذا فيه شيء من

الرياء.. فالأولى.. زيارة قبره وإخلاص الدعاء له.. بدل نشر هذه العبارة في الصحف والمجلات وإذاعتها عبر الأثير.. والأحياء يعرفون حال المتوفى في الدنيا.. إن كان من أهل الصلاح أو غير ذلك.. ولذلك كانت شهادة الصالحين من الناس هي المعتبرة..

ـ ماذا تعني؟!

ـ جاء في الحديث «**أن جنازة مرت على جمع من الصحابة فأثنوا على المتوفى خيرا.. فقال صلى الله عليه وسلم: وجبت.. ثم مرت جنازة أخرى فذكروا غير ذلك فقال صلى الله عليه وسلم وجبت.. ولما سئل عن (وجبت) قال: أثنيتم على الأولى خيرا فوجبت له الجنة وذكرتم الأخرى فوجبت له النار أنتم شهداء الله في أرضه**» (متفق عليه).. فشهادة الصالحين المخلصين هي المعتبرة لأنهم لا يقولون إلا فيما يرضي الله ولا يشهدون إلا بالحق..

ـ ولكن ألم نؤمر بألا نذكر مساوئ موتانا وأن نذكر محاسنهم؟

ـ نعم.. هذا من شريعتنا ولكن الحديث ربما كان قبل هذا الأمر.. أما نحن اليوم فلا نذكر موتانا إلا بخير.. ونترحم عليهم.. وندعو لهم.. ونسأل الله أن يتغمدهم برحمته.. ولكن لا نتعدى حدودنا ولا نحكم لأحد بالجنة..

نِعَم لا نشكرها

اضطررت الخميس الماضي أن أكون خارج المنزل منذ الصباح الباكر وكنت معظم الوقت تحت شمس الكويت في الشهر السابع!!!

بعد صلاة العصر أصابني كسل عام وشعور بالغثيان ودوار لم أستطع معه الاستلقاء... تغيبت عن المسجد... بقية ذلك اليوم حتى صلاة الجمعة.. لم أتمكن من الخطابة... عادني صاحبي بعد صلاة عصر الجمعة...

- ابن آدم ينسى ويطغى ويغفل ويحتاج إلى من يذكره نِعَم الله عليه بين فترة وأخرى.. ها نحن في لحظة في أوج نشاطنا وفي لحظة أخرى لا نستطيع حراكاً...

- لا شك أن نِعَم الله لا تحصى ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ (إبراهيم)... والمسلم في شكر عام طالما هو في طاعة الله.. وإذا طرأت له نعمة محدثة استوجبت شكراً في حينها...

- كثير منا لا ينظر إلى أن بقاءه على قيد الحياة فترة أطول نعمة عظيمة من الله... إن كان عاصياً ليتوب... وإن كان طائعاً ليزداد... ففي لحظة الموت يقول بعضنا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (المؤمنون)... ويقول آخرون ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن

يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾ (المنافقون)»... إن البقاء على قيد الحياة فترة أطول.. نعمة عظيمة لا يعرف قدرها معظم الناس... أحضر الخادم الشاي وملحقاته... قام صاحبي بخدمتنا.. رغم محاولتي منعه..

- إن الوقت نعمة عظيمة... لو نظر الإنسان إلى الوقت أنه (الحياة).. كل دقيقة تمضي إنما هي دقيقة أقرب إلى الموت... إلى نهاية الحياة الدنيا... إلى الانتقال من دار العمل إلى دار الجزاء... كل دقيقة تحمل معها عملاً صالحاً أو سيئاً... كل كلمة قيلت تسجل... ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ (ق)... وسيرى المرء ذلك عياناً يوم القيامة ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ (الكهف)..

- ولكن زحمة مشاغل الحياة تلهي الإنسان عن هذه الحقائق!!!

- (إلا المصلون)... (إلا المتقون).. (إلا الخاشعون)... المرء إذا أحس من نفسه غفلة.. عالجها... ذهب إلى المقبرة فتذكر الموت.. ذهب إلى المستشفى فتذكر المرض والعجز... ذهب إلى الفقراء فتذكر الحاجة والفاقة... سمع أخبار المشردين فتذكر نعمة الأمان والاستقرار فيحمد الله... ويشكر النعمة... ويعمل في الطاعة.. «**أهل الجنة لا يتحسرون على شيء من الدنيا إلا ساعة قضوها في غير ذكر الله**» (أصله في صحيح الجامع)... كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم... تدبر

سورة العصر... يقسم الله بـ(العصر)... لماذا؟الله لا يقسم إلا بالعظيم من مخلوقاته عز وجل.. الشمس ـ القمر ـ الليل ـ النهار.. النفس.. وذلك لعظم هذا المخلوق (العصر).. الوقت... الزمن.. المتكون من الليل والنهار.. وكل ليلة مخلوق جديد.. وكل نهار مخلوق جديد.. يحمل ما نعمل فيه ويمضي فلا يعود أما الغافل، فينظر إلى الأمور على أنها كرة أرضية تدور وليل... ونهار يتكرر.. والليلة كالبارحة... واليوم كالأمس... نهار.. عمل.. تعب.. نوم.. لو كان الأمر كذلك لكان عبثاً.. وتعالى الله سبحانه عن العبث.. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ (المؤمنون).

المنع نعمة.. كما العطاء

ـ هل تعلم أعظم نعمة يمنّ بها اللّه على العبد؟

ـ الهداية.. وهناك سبب عظيم لهذه النعمة.. وهي الثقة باللّه. الثقة باللّه قضية قلبية عظيمة، من يحققها ينل الخير كله.. يثق بأن ما شرع اللّه هو الخير.. وما أمر اللّه به هو الأكمل.. وما نهى عنه هو الشر.. وما أعطاه اللّه خير.. وما منعه خير..

ـ لكن المؤمن يسأل اللّه خير الدنيا والآخرة.. ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (البقرة)..

ـ تدبر هذا الدعاء.. يسأل اللّه الحسنة.. لم يسأله مالاً أو منصباً.. وإنما الحسنة. وهي كل ما يعود عليه بالخير في الدنيا.. فكثرة المال قد تكون سيئة.. فالثقة باللّه.. والثقة بأن اللّه أعلم بأحوال العبد.. وأن اللّه أرحم بالعبد منه بنفسه.. هذه الثقة تورث الطمأنينة إلى كل ما يقضيه اللّه على العبد.. من رزق.. أو عافية.. أو مرض.. أو ذرية.. أو عقم.. أحدنا لا يدري أين الخير بالنسبة إليه.. ولكن على قدر الثقة باللّه تكون الطمأنينة في القلب..

كنت وصاحبي في أول لقاء لنا بعد عودته من رحلة علاج.. استمرت شهرين.. مر خلالها بمراحل عصيبة إلى أن انتهى الأمر بشفائه تماما بفضل اللّه..

كنت أقود المركبة وتركت له مسألة اتخاذ قرار المكان الذي نتعشى فيه.. سأل..

ـ ولكن.. عندما يسأل أحدنا ربه ما يظن أنه خير له من أمور مادية ودنيوية.. ثم لا يستجيب الله له.. هل يتوقف؟

ـ هناك أمور ينتهي وقتها.. مثلاً.. تاجر دخل في مناقصة.. أخذ الأسباب ودعا الله أن يرزقه إياها.. ولم ينلها.. يعلم يقينا أن ذلك خير له ولا يعترض.. ويتذمر.. ويسخط.. ويحقد.. ويحسد من رست عليه المناقصة.. وهنا تنتهي مسألة هذه المناقصة..

ورجل آخر.. أصيب ابنه بمرض.. فإنه يأخذ بالأسباب لعلاجه.. ويدعو الله.. ولا يتوقف عن دعاء الله.. حتى يشفى المرض.. وإن أخبره بعض الأطباء أن قدراتهم قد توقفت عند عدم إمكانية شفائه.. فإنه يستمر في الدعاء ولا يقنط من رحمة الله..

وهناك أدعية لا يتوقف المرء عنها مدى حياته.. الثبات على الحق.. وتثبيت القلب.. وصلاح الدين والدنيا والذرية.. والعفو والعافية.. وحسن الخاتمة.. وغير ذلك.. ولكن القصد أن يذكّر المرء نفسه دائما.. بالثقة في الله.. لأن الإنسان ينسى مع زيادة حرصه على قضية ما.. أو منصب ما.. ثم لا ينال مبتغاه ينسى الثقة بالله.. بل يجب عليه أن يحمد الله.. فالله سبحانه وتعالى (له الحمد على كل حال) أحبت النفس هذه الحال أم أبغضتها..

ـ ألا يناقض ذلك طبيعة النفس البشرية؟

- إن الإنسان عموما فيه الكثير من الخلل الذي يجب أن يصلح.. ولذلك ذم القرآن الإنسان.. واستثنى المؤمنين من الإنسان ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ (المعارج).. ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ (الإسراء).. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ (العاديات).. ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ۝١٠٠﴾ (الإسراء).. فالمؤمن يسمو على الحاجات المادية والآنية التي يتشبث بها معظم الناس.. فيتعامل مع ربه.. بثقة.. لأنه مولاه.. خالقه.. الرحيم.. العليم.. الرؤوف.. الكريم.. ولا تتزعزع هذه الثقة بسبب شيء من حطام الدنيا.. فاته.

كُفاّر هذا الزمان

ـ وهل نستطيع أن نصف بعض المسلمين بأنهم «كُفاّر»؟

هكذا صاغ صاحبي سؤاله منكراً وصفي لبعض الناس بالكفر.. مازحته..

ـ كيف يكونون كفارا إذا كانوا مسلمين.. إما أنهم مسلمون أو كفروا بعد إسلامهم؟!!

ـ المهم.. هل فعلا يوجد بين المسلمين من يمكن أن يوصف بأنه كافر؟!

ـ تعال إلى نواقض الإسلام.. من ارتكب نواقض الإسلام فقد خرج من الإسلام إلى الكفر فهو كافر..

ـ تعني « كافر» .. مثل (أبي لهب).. و(أبي جهل).. و(أمية بن خلف).. الذين كانوا يعذِبون ضعفاء المسلمين ويسبون الرسول الله (صلى الله عليه وسلم).. ويحاربونه؟!!

ـ الكفر.. كله واحد.. يؤدي إلى الخلود في نار جهنم.. سواء كان زمن نوح عليه السلام أو زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) .. أو آخر الزمان.. من وقع في الكفر نال جزاءه خلوداً دائماً في نار جهنم.. لا يخرج منها.. ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.. (المائدة).

ـ وهل يوجد بيننا هذه الأيام من تستطيع أن تصفه أنه كافر؟!

ـ نعم..

إستكثر علي هذه الكلمة وعبر عن استنكاره بتعابير وجهه.. تابعت حديثي..

ـ نعم .. بيننا من يمكن أن يوصف بالكفر دون شك.. مثلاً ذلك الإنسان الذي يعد الصيام تخلفاً.. فلا يصوم.. ولا يعترف بأن الصيام فرض يجب على المسلم.. بل يرى أن الصيام والفطر سواء.. والأمر يرجع إلى وجهة نظره الشخصية... فهذا من الحريات الشخصية التي لا يحاسب عليها الإنسان. لا في الدنيا ولا في الآخرة.. فهذا كافر.. وإذا مات ولم يتب ويرجع عن عقيدته هذه فهو خالد في نار جهنم.. وإن كان اسمه (محمد)...

ـ وهل يوجد إنسان يقول هذا الكلام ويتصرف هذا التصرف؟!

ـ نعم..

استغرب صاحبي حزمي وجزمي على الأمر..

ـ هناك آخرون ينكرون حدود الله.. فيقولون إن قطع يد السارق ظلم.. أو تخلف.. ورجم الزاني وحشية.. وجلد شارب الخمر تعدّ على الحريات.. وكل ذلك أحكام لا معنى لها، بل جاءت لمجتمع بدائي بدوي.. لا لأيامنا هذه حيث المدنية المعاصرة وتساوي المرأة بالرجل.. ويعتقدون أن شريعة الله لامكان لها في المجتمع.. عقيدتهم هذه كفر.. وإذا لم

يتوبوا منها ماتوا وهم كفار.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ (البقرة).. يخلدون في نار جهنم.. لا يخرجون منها أبدا.. وتريد نوعاً آخر؟!

- هل لديك مزيد؟!

- نعم... هذا غيض من فيض.. أولئك الذين يستهزئون بالملائكة ولا يؤمنون بوجود ملائكة أو جن.. ويضحكون على الأحاديث التي تخبر عن الغيب وكيفية خروج الروح من البدن وصعود الروح ثم رجوعها وسؤال القبر والبعث والحشر يوم القيامة واقتراب الشمس من الرؤوس.. يعدون كل هذه (قصصاً) و(حواديت) لا قيمة لها ولا حقيقة.. فيسخرون ممن يرددها.. ويستهزئون بمن يؤمن بها.. ويحاربون من يدعو بها. هؤلاء كُثُرٌ وإن لم يتوبوا فإنهم كفار يخلدون في نار جهنم.

حكم الردة

ألقى التحية وجلس بجانبي يسألني:

ـ هل من الممكن أن تدرك رحمة الله الكافر فيخرجه من النار؟

ـ كلا.. من مات على الشرك أو الكفر أو النفاق فإنه خالد في نار جهنم لا يخرج منها أبداً.. وإن كان له من أعمال الخير في الدنيا..

ـ ومن مات على غير الكفر.. ولم يدخل في الإسلام؟!

استزدته توضيحا..

ـ أعني رجلاً - وهذا حصل معي شخصيا - غير مسلم.. كافر لا يؤمن بدين مطلقاً.. شرحت له ديننا وعقيدتنا.. وبعد فترات من النقاش.. طلب مني مهلة ليفكر في الأمر.. وتوفي ولم ينطق بالشهادتين.

ـ إذن لم يدخل الإسلام ومات على ما كان عليه؟!

ـ ربما دخل قلبه شيء من الإسلام ولكنه أراد مهلة ليفكر قبل أن يتخذ القرار بالإسلام.

ـ إن كان مات على الكفر فهذا مخلد في نار جهنم.. وإن كان أسلم فيرجى له أن يكون ممن ينالهم الله برحمته فينتهي إلى الجنة.. ونحن هنا لا نحكم على أعيان محددة ولكن نقول: «**من مات لا يشرك بالله دخل الجنة ومن مات يشرك بالله خلد في نار جهنم**» (صحيح مسلم).

- ولكن أخبر الله أن قاتل المؤمن عمداً مخلد في نار جهنم.. ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (النساء).. وكذلك أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم «**أن من قتل نفسه فهو خالد مخلد في نار جهنم؟!**» (متفق عليه)

- لتوضيح الأمر قال العلماء: هناك خلود للكافرين وخلود لمن مات على غير الشرك.. أما خلود الكافرين فهو الخلود المؤبد لا يخرجون من النار أبدا.. أما خلود من مات على غير الشرك وأتى من الذنوب العظيمة.. كقتل النفس.. فإنه خلود بمعنى مكثٌ طويلٌ بالنسبة لغيره من أصحاب الذنوب الذين يعذبون في النار.. فنحن نعلم أن كثيرا من المسلمين يعذبون في النار بذنوب لم يتوبوا منها.. وهؤلاء يتفاوت عذابهم شدة وزمناً.. ثم يخرجون من النار متى ما نالوا العذاب الذي يستحقونه.. ويشفع الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم «**فيأمره الله عز وجل أن يخرج من النار من أهل الإسلام من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.. ثم يأخذ الرحمن ثلاث حثيات من النار فيدخلهم الجنة**».. (صحيح مسلم) وهؤلاء ما عملوا خيراً قط إلا أنهم ماتوا على الإسلام ولم يقعوا في الشرك.. فيبقى في النار من حكم عليهم بالخلود الدائم فيها.. وهم الكفار فقط.

- وإذا كان هناك شخص ولد لأبوين مسلمين وعاش طفولته مسلماً وصلى مع الناس.. وعندما بلغ العشرين قال: (أنا أريد أن أُعطى الخيار في أن أسلم أو ألا أسلم).. هل هذا إذا قرر الخروج من الإسلام بحجة الاختيار - ثم يرجع إلى الإسلام إذا اقتنع.. هل يعد مرتداً؟!

ـ نعم.. حرية الدخول في الدين لمن كان خارج الدين من أهل الكتاب.. هؤلاء يدعون فإن لم يقبلوا.. أبقوا على دينهم ويدفعون الجزية للدولة الإسلامية.. والمسلم الذي ولد في الإسلام.. هذا أعطاه الله ما هو أعظم من (خيار الدين).. أعطاه الهداية إلى الحق والنجاة.. فولد على الفطرة وعاش فيها.. فهذا إن قرر الخروج عن الإسلام.. أو ارتضى الإسلام ظاهراً وبقي في قلبه يريد غير الإسلام فإنه منافق.. وجزاؤه أعظم من الكافر في نار جهنم.. فإن تاب بعد ذلك رجع فهو من المسلمين.

تفسير القرآن

كنا قد أدينا صلاة العشاء وفي طريقنا إلى الديوان المجاور للمسجد لاجتماعنا الأسبوعي يوم السبت... حاورني صاحبي..

- لقد دار جدال بين بعض الإخوة في ديوان الثلاثاء حول معنى (الأمانة) في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأحزاب).. والنقاش دار حول.. هل الأمانة عرضت على السماوات والأرض فرفضن حملها؟!.. وكيف ذلك وهل لها أن ترفض؟! وهل كان يمكن للإنسان أن يرفض حمل الأمانة وحملها مختاراً لأنه ظلوم جهول؟!.. ودار نقاش طويل وآراء حول الموضوع..

- ابتداء.. وقبل أن نتكلم عن معنى الآية.. لا ينبغي لمسلم أن يتكلم في تفسير القرآن قبل الاطلاع على المعنى في كتب التفسير فإن الكلام عن كتاب الله ليس كالكلام حول القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يدلي كل أحد برأيه فيها سواء المتخصص منهم والهاوي.. الحديث عن كتاب الله دون علم إثم عظيم.. هذه قضية أولى.. ثم القضية الثانية.. يجب أن يكون واضحاً عند كل مسلم أن لا تناقض ولا تعارض بين آيات كتاب الله.. ومن أعظم الظلم أن يضرب آية بآية أخرى أو آية بحديث صحيح عن رسول الله.. القرآن والسنة الصحيحة كلها من عند الله ويؤيد بعضها بعضاً ويبين بعضها بعضاً.. فلا تعارض.

كنا قد أدركنا الديوان.

ـ وأما معنى الآية فدعني أرجع إلى كتب التفسير وآتيك بالجواب غدا بعد صلاة العصر إن شاء الله.

والتقينا بعد عصر اليوم الثاني..

ـ لقد اطلعت على تفسير ابن كثير والقرطبي والنسفي.. ومعنى الآية يدور حول معان مترادفة لا متعارضة.. وحتى ندخل في هذه المعاني نذكر معنى (الأمانة) هنا.. وهي جميع أوامر الله وتكاليفه.. فعندما خلق الله السماوات والأرض كما قال عز وجل ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ (فصلت).. فالسماوات والأرض والجبال وكل المخلوقات أطاعت بمجرد سماع الأمر.. خوفاً وإذعانا لله عز وجل (فأدت) الأمانة ولم (تحملها).. والمطلوب من المخلوقات أداء الأمانات لا حمل الأمانات.. إلا الإنسان فإنه (حمل) الأمانة.. كما قال الله مخبرا أن كل ما في الكون يسجد له ويسبح بحمده ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ (الحج).. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ (الإسراء).

وفي رواية أخرى أن الله عندما خلق آدم عرض عليه الأمانة فقال وما لي إن أديتها؟ قال لك الجنة قال وإن لم أؤدها؟ لك النار! فحملها.. فكانت أول أمانة حملها قوله تعالى له ولزوجه ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الأعراف).. ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.. فتاب بعد ذلك وتاب الله عليه واصطفاه وأنزله إلى الأرض.. المعنى.. أن الإنسان مطلوب منه أن يؤدي الأمانة بالتزام أوامر الله ولكن من حملها ولم يؤدها فإنه ظلوم جهول ولذلك بيَّن الله في الآية التالية جزاء من ضيع الأمانة وجزاء من أدى الأمانة ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأحزاب).

وهناك معنى آخر مرادف لهذا المعنى.. وهو أن الأمانة التي حملها الإنسان عظيمة تعجز عنها الجبال والسماوات والأرض فإن أداها الإنسان فإنه خير من هذه المخلوقات العظيمة وإلا فهو (لا شيء). إن هذه المخلوقات تحقق العبودية لله بالتسبيح والإذعان.. أما الإنسان فإنه يحقق العبودية لله بمحض إرادته.. فهو يسبح ويعبد الله باختياره فيحقق معنى لا إله إلا الله.. وهو يذنب فيستغفر الله فيحقق معنى (الغفار والغفور).. ويتوب إلى الله فيحقق معنى (التواب).. ويفتقر إلى الله فيحقق معنى (المعطي) و(الغني).. وهكذا أكمل أنواع العبودية يحققها هذا المخلوق (الإنسان) ولذلك ذكر الله علة خلق الإنسان فقال ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات).. مع أن جميع المخلوقات تعبد الله ولكن أكمل العابدين هو الإنسان وأكمل الناس هو محمد صلى الله عليه وسلم.

المِيتتان والحياتان

استقبلني عند باب المسجد.. ابتدرني بالتحية ثم..

- عندي لك سؤال...

وكثيرا ما يسألني (بوفيصل) عن أمور تتعلق بالتفسير أو العقيدة...

- هات ما عندك يا أبا فيصل...

- قول الله عز وجل ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ (غافر: ١١) في أي سورة وما معناها؟

- هذه جزء من آية في سورة غافر.. يخبر الله عز وجل عن الكفار فيقول.. ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ (غافر).

- وما معنى الموت مرتين والحياة مرتين؟!

- بل (الإماتة والإحياء)... أما المعنى.. فإن الكفار يوم القيامة إذا وقفوا بين يدي الله عز وجل.. ناكسو رؤوسهم طلبوا الرجوع إلى الدنيا ليعملوا غير الذي عملوا.. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.. (السجدة) فلا يجابون.. ويؤمر بهم إلى النار.. فإذا رأوها طلبوا الرجوع أشد من طلبهم الأول.. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأنعام) فلا يجابون ثم إذا ألقوا فيها

زاد طلبهم الرجوع إلى الدنيا.. ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ (فاطر).. فلا يجابون.. وفي هذه الآية التي ذكرت من سورة غافر.. يقدمون بين يدي طلبهم للرجوع حقيقة تثبت أن الله قادر على إرجاعهم فيقولون لله عز وجل.. ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ (غافر: ١١).. أي ربنا إننا كنا أمواتا فأحييتنا ثم أمتنا ثم أحييتنا.. فأنت قادر على الإحياء بعد الإماتة.. ولا يعجزك شيء.. فارجعنا يارب.. قاطعني بعد هذا الإسهاب...

ـ دعني أركز.. معنى الإماتتين.. أن الناس كانوا أمواتا أصلاً فأحياهم الله، ثم أماتهم في الدنيا ثم أحياهم في الآخرة؟!!

ـ نعم.. هو ذاك..

ـ هناك آية أظن في سورة البقرة تذكر الأمر نفسه أليس كذلك؟

ـ نعم.. ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (البقرة).

ـ دعني أسأل سؤالا آخر.. يخبرنا الله عن هذه الأحداث.. أعني حديث الكفار ورجاءهم وصراخهم في النار.. وكأنها في الماضي أو الحاضر.. ﴿قالوا ربنا..﴾.. ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ...﴾ فهل من دلالة في ذلك.. مع أن كل ذلك سيقع يوم القيامة ولم يحدث بعد؟!

ـ قطعا..هذه الأحداث ستحدث ونؤمن بها يقينا..وتأتي في أزمنة

مختلفة تعطي أكمل صورة وأبلغ موعظة.. لمن أراد أن يعتبر ويتعظ.. حتى لغة.. هذا أكمل أسلوب للحديث عن هذه الأمور ولاشك ولا ريب.. ولكن دعني أكمل لك تفسير الآية التي بعدها.. ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ (غافر).. قطع الله حجتهم بأنهم حتى لو أرجعهم الله إلى الدنيا فإنهم سيعودون إلى الشرك.. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأنعام).. فدعواهم باطلة وحجتهم كاذبة لن يعملوا غير الذي عملوا ولن يوحّدوا بعد شركهم رغم أنهم رأوا العذاب رأي العين!!!

﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ (التين ٥)

كان مميزا بيننا بالعضلات المفتولة والصدر المنتفخ والقامة المنتصبة والخصر المضمر.. لم أره لمدة خمس سنوات.. ولم أسأل عنه.. لا علاقة بيننا لا في العمل ولا خارجه.. وأمثاله قد يرجعون إلى بلادهم.. أو ينتقلون إلى جامعة أخرى..

مع بداية العام وبينما أنا في طريقي من مواقف السيارات إلى المكتب تجاوزت أحدهم.. لا لسرعة سيري بل لبطئه.. ناداني باسمي.. إلتفت فإذا هو .. هو. «سبحان اللّٰه».. قلتها دون شعور دون أن أتلفظ بها.. بعد التحية.

- ما الذي حصل؟!

- الحمد للّٰه.. منذ أربع سنوات أصابني «ديسك» وأقعدني لستة أشهر متواصلة.. لم أتحرك خلالها.. ثم ظهرت علي آثار القرحة وتبين أنه سرطان بسيط في القولون.. فاضطررت إلى إجراء عملية جراحية أولى.. ثم .. وثم.. وما زلت منذ ذلك الوقت تحت العلاج.. زاد وزني عشرين كيلو في البداية ثم نقص عشرة ثم ازداد عشرين أخرى، والآن لا أستطيع السير إلا باستخدام العكاز هكذا كما ترى.. الحمد للّٰه.

- لا بأس عليك..

- ولكن الحمد للّٰه.. شعرت في هذه الفترة كم كنت بعيدا عن اللّٰه.. ظننت أنني بممارسة الرياضة اليومية والمحافظة على الطعام سأكون بعيدا عن كل مكروه.. عرفت كم كنت في غفلة.. نعم.. كنت أعيش حياتي

كاملة.. لا أصلي.. أصوم رمضان.. ولكن دون صلاة.. أشتغل في الأبحاث وأنشر في المجلات وأشارك في المؤتمرات.. حياة كنت أظنها «مثالية» وفجأة حصل كل شيء.. الحمد لله.. آه لقد أديت فريضة الحج العام الماضي.. بشق النفس.. ولكن بصراحة خفت أن أموت، فأديت الحج وها أنذا، أؤدي صلواتي كما يجب.. لعلي أعوض بعض ما فاتني.

ـ أسأل الله أن يعافيك ويتم شفاءك.

ـ شكرا .. لقد كنت أقرأ تفسير السور القصيرة في القرآن.. وقفت طويلا عند سورة التين.. كأن الله يخاطبني.. كلما قرأتها ارتعدت فرائصي.. وارتجف بدني.. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ (التين).. أي بعد هذه الحياة التي كان فيها قوياً سعيداً يجوب الأرض شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً.. يتباهى بقوته ويستعرض قدرته.. المادية والجسدية.. أصبح مصيره ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ في نار جهنم.. الله أكبر.. أين ماله؟ أين قوته؟.. أين كبرياؤه؟.. أين منطقه؟.. أين علمه؟.. لا شيء نفعه لأنه لم يكن من «الذين آمنوا وعملوا الصالحات».. الذين لهم ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.. سورة قصيرة أقرأها مرة ومرة.. وربما كررتها في ليلة واحدة عشرات المرات.. ولكن أحمد الله أنني لم أتزوج.. وإلا لكانت حسرتي مضاعفة.. وأنا ما زلت دون الخمسين، ولكن عاجز عن الاعتماد على نفسي فضلا عن أؤدي واجباتي الزوجية.

الحمد لله على كل حال.. تركته وأنا أتفكر.. كم نحن مقصرون في حق الله ولا يزال يُنعم علينا ويعطينا ويتلطف بنا ونعرض عنه..

العلاقة الزوجية... من آيات الله

لم يَرُق كلامي عن العلاقة الزوجية لصاحبي..

- أراك تصور العلاقة الزوجية بمثالية لا وجود لها في الواقع.. كم من الأزواج لا يجد راحته إلا خارج المنزل.. وكم من الزوجات لاتعرف السعادة إلا بعيدا عن زوجها.. وكم من الأزواج إذا اجتمعوا في مكان واحد أُعلنت الحرب.. ليتك تتكلم عن هذه العلاقة بواقعية أكثر..

- بل أنا أتكلم عن العلاقة الصحيحة.. كما أمر بها الله، وكما جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم.. على سبيل المثال.. عندما يدخل قلب الرجل شيء من الكره تجاه زوجته أو العكس.. ينبغي عليه أن يوقف ذلك.. اهتداء بقول الله تعالى.. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء)... وقول الرسول صلى الله عليه وسلم.. «**لايفرك مؤمن مؤمنة إذا كره منها خلقا أحب منها آخر**» (مسلم)... البحث عن الكمال في الرجل أو المرأة محال.. أما أن يزيد الرجل كرهه لزوجته بالابتعاد عنها أو الزوجة لزوجها بالنفور منه.. فهذا لا يقول به علم ولا شرع ولا عقل.

قررت وصاحبي قضاء بقية الوقت إلى المغرب في المسجد للمساعدة في إعداد الوليمة لمشروع (إفطار الصائم).. تابعت حديثي.

ـ ما أقصده هو .. أن الله بيَّن جوانب كثيرة من العلاقة الزوجية في كتابه.. كيف تبدأ وعلى أي أساس تقوم وكيف تدوم.. وإذا استحالت كيف تنتهي بسلام.. أنظر مثلاً في آيات الطلاق.. يقول تعالى ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ (النساء).. وقال: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ (البقرة)... فالمرأة تعلم أدق أسرار زوجها.. وهو يعلم أدق تفاصيل حياتها... أكثر من الآباء والأمهات.. ولذلك... إن قامت العلاقة الزوجية وفق ما يرضى الله تكون الأسرة متماسكة قوية صالحة لإنشاء جيل قويم..

ـ أنظر... ترجع كل مرة وتقول.. (إن قامت).. بصيغة الشرط... وأين هي الأسرة التي تقوم على هذه المثالية؟!

ـ وهل الأمر مستحيل أم خيالي؟.. كلا.. الأمر يتطلب إلتزاماً وإصراراً وتذكيراً.. ولابد من «التفويت».. رسولنا صلى الله عليه وسلم يحث الرجال فيقول.. «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**» (متفق عليه)... ويحث النساء فيقول: «**لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**» (السلسلة الصحيحة).. ويذكّر الرجال ويحذر النساء فيقول: «**إذا دعا الرجل امرأته فأبت لعنتها الملائكة حتى تصبح**» (متفق عليه). وهكذا الأمور للنساء والرجال معا ولا رأي لأحد منهما فيما اختاره الله..

- تعني أن يخضع الجميع للقوانين الإلهية لا لأهوائهم؟!

- نعم.. هو ذاك.

- هذه مثالية لا يستطيعها معظم الناس..

- ولكنهم يستطيعون أن يحاولوا.. إن التجرد عن الأهواء والآراء الشخصية هو أول أسباب نجاح هذه العلاقة... وليعلم الجميع رجالاً ونساء أن الله هو الذي قسم الأدوار في الأسرة.. القوامة للرجل والطاعة على المرأة بالمعروف ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب) هذا في كل شيء.. وجاءت مناسبة الآية في العلاقات الزوجية... سواء في الارتباط..أو في الانفصال.. أو الميراث.. أو الحضانة.. أو الرضاعة.. أو غير ذلك.

العلاقة الزوجية.. من آيات الله(٢)

منذ توفيت زوجته وحاله لا تسرّ صديقاً.. قليل الكلام.. مطأطأ الرأس.. شارد الذهن.. عندما تحادثه يبدو طبيعياً، ولكنك تشعر دون شك أن شيئا ما نقص.. لا حياة في حديثه.. ولا حيوية في ردود أفعاله.. الأمور كلها سيان بالنسبة له..

- عجيب كيف يشعر الإنسان عندما يفقد شريك حياته.. شعور يختلف عن فقد الابن أو الأب.. تشعر أن معاني الحياة والأنس والعشرة والمشاركة قد فنيت مع الحبيب في قبره..

- لا عجب، فقد ذكر الله العلاقة الزوجية ضمن آيات عظيمة في سورة الروم: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم:) وذلك بعد أن ذكر أصل خلق الإنسان من تراب، وقبل أن يذكر خلق السموات والأرض واختلاف الألسن والألوان والنوم والبرق والمطر.. وكلها آيات كونية عظيمة لو تفكر بها الملحد لآمن بالله عز وجل!!

- ماذا تعني بهذا الكلام؟

كنت وصاحبي في طريقنا إلى محل الألبان الطازجة بعد صلاة العصر استعدادا للإفطار.

- أعني .. أن هذه العلاقة بين الرجل والمرأة ليست كباقي العلاقات البيولوجية الفطرية.. علاقة الأبناء نجدها حتى في الحيوان.. أما

علاقة الزوجة بالزوج والعكس لاتجدها بهذه الصورة الراقية إلا في البشر.. وذلك إذا قامت وفق المعايير الإلهية التي ارتضاها الله لخلقه.. هذه العلاقة يذكرها الله في مواضع مختلفة من كتابه.. في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء) فأصل الاثنين واحد.. وهي خلقت منه.. ثم اجتمعا بطريقة أثمرت رجالاً ونساء.

ويذكرها الله في موضع آخر: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة :١٨٧) ثم يذكرها في مكان ثالث: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ (النساء: ١٢٧)» ويبين قوة العلاقة وخصوصيتها بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ (النساء).

بلغنا المكان الذي نريد... أخذنا حاجتنا.. امتطينا مركبتنا آيبين..

ـ ولكن لكل شعب عاداته وتقاليده ورؤيته الخاصة في العلاقة الزوجية.. بعضهم يحرم التعدد.. وبعضهم يحرم زواج الأقارب.. وبعضهم يبيح الارتباط دون زواج.

ـ هذه كلها اجتهادات بشرية لاتقوم أمام النظام الإلهي الذي وضعه رب البشر...﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ (البقرة) إن الله أمر الرجل والمرأة أن يحسن الاختيار للآخر.. فلا تبدأ العلاقة بالإكراه... لا للرجل ولا للمرأة.. فإن ارتضى كل منهما الآخر... أمرهما أن يجتمعا بالمعروف..

وإن قررا الافتراق فليكن ذلك بإحسان مع بغض عملية الإفتراق.. وفي القرآن تفصيل دقيق للطلاق في جوانبه الظاهرية والقلبية ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ (البقرة) ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ (الطلاق) ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾ (البقرة: ٢٣١) ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ (البقرة) ولكن الشعور الذي يتولد بين الرجل والمرأة من الزواج ليس مجرد العشرة.. ولا الود.. ولا السكينة.. إنه اجتماع نصفين وتطابق جزأين.. لا يشعر أحدهما بالرضا إلا بوجود الثاني.. فإذا قدر الله ومات أحدهما قبل الآخر ترك فراغا لا يعرفه إلا من مر بهذه التجربة الصعبة.

ومن آياته (١)

صاحبي من الذين يؤيدون التفسير العلمي للقرآن يقرأ كتب الإعجاز العلمي في القرآن.. ويطرح هذا الفكر في كل مجلس، يقول إن عصرنا هذا هو عصر العلم والمخترعات ويمكنك من خلال هذا التفسير أن تصل إلى قلوب الناس.

ـ أنا أزعم أن الإيمان يجب أن يُبنى على التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وكل آيات الله الكونية والقرآنية تزيد العلم والإيمان ولكن لا تمس أصل العقيدة.

لَمْ يتفاعل صاحبي مع ما أبديت.. فتح المصحف على صفحة كان قد حدّد مكانها بفاصل ورقي.

ـ إسمع.. ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الروم).

هذه الآية العظيمة يمكن أن ينظر إليها الإنسان على أنها تبين أصل خلق الناس.. من تراب.. أما بعد الخلق الأول فالناس يخلقون من بشر.. ثم ينتشرون.. ولكن هل تعلم آخر ما قرأت في مجال أبحاث DNA.. (سلسلة الحمض النووي) قرأت أن هذه المادة عندما حاول العلماء استخلاصها وجدوا أنها لا تلتصق بشيء كالتصاقها بالسيلكون.. (التراب).. وكأنها «تحن» إلى التراب.. ألا يجعل هذا الاكتشاف العلمي المرء يوقن أن هذا القرآن جاء من خالق الإنسان الذي جعل مادته حتى بعد تغيرها ترجع إلى التراب..

ـ هذا كلام جميل.. وربما يمكن أن تناقش به علماء غير مسلمين.. وربما يقبلون رأيك أو يردونه.. أما نحن فنقول، إن اللّه خلق آدم من تراب.. خلقه سبحانه وتعالى بيديه.. وسوّاه رجلا بكل تفاصيله.. وقال له (كن) فكان.. ونفخ فيه من روحه.. أي أن جبريل نفخ فيه الروح فاستوى آدم خلقاً كاملاً.. ثم خلق من آدم حواء.. وذلك من ضلع.. أي أن اللّه خلق حواء من جزء من آدم.. وجعلها زوجة له.. وأمره أن يسكن وزوجته الجنة إلى آخر الحقائق التي جاءت بتفاصيلها في آيات كثيرة من كتاب اللّه عز وجل...

فتح صاحبي المصحف على الصفحة ذاتها التي كانت عندها العلامة.. وقرأ...

ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم).. في بداية الخلق... خلق اللّه حواء من مادة آدم.. مادياً كانت جزءا منه.. إشارة إلى أن الزوج بعد أن يرتبط بالمرأة التي تكون زوجته بعد العقد الشرعي يتعامل معها أنها بضعة منه!! سبحان اللّه...

ـ أنظر إلى أن اللّه جعل (العلاقة الزوجية).. آية من آياته.. فكما وصف السموات والأرض والجبال والشمس والقمر.. وغيرها بأنها آيات.. جعل من آياته خلق الزوجة الأولى (حواء).. تنبيهاً إلى مكانة كل زوجة من زوجها إلى يوم القيامة.. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم).

ومن آياته (٢)

كنت في زيارة إلى دولة إسلامية لا تتكلم اللغة العربية.. مرافقي كان يجيد الفصحى.. أذهب إلى السوق في أوقات الراحة أتمشى بين عامة الناس.. وربما استأجرت مركبة ذات ثلاث عجلات أتجول في بعض المناطق الشعبية.. عندما كنت أحدثهم لم يكن أمامي إلا لغة الإشارة.. سمعت أذان العصر ذات مرة.. تلفت أبحث عن منارة استدل بها على المسجد فلم أنجح.. اتجهت ناحية مصدر الأذان لمحت أحدهم ظننت أنه يريد المسجد فاتبعته.. أدركته ـ أشرت إليه رافعا يدي كهيئات التكبير مع قول (نماز؟).. فَهِم مرادي وأشار إلى طريق جانبي نهايته مبنى صغير.. تركني وذهب أدينا الصلاة بعد نصف ساعة!!! رافقني أحدهم.. بعد أن تعرفنا.. وكان يتحدث الفصحى..

ـ سبحان الله.. كلنا خلقنا الله من أب واحد وأم واحدة... وها نحن نتكلم لغات لا صلة بينها..

ـ هذه من آيات الله ألم تقرأ قول الله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الروم) خلق السموات العظيمة والأرض.. هذه الآية العظيمة التي لا ينكرها ذو نظر.. آمن أم كفر.. يقرنها الله بآية اختلاف اللغات والألوان.. وذلك أن كل فئة من الناس تتكلم لغة لا تتكلمها الفئة الأخرى.. وهؤلاء لا يفهمون أولئك. هل تعلم كم لغة يتكلم أهل الأرض..

كان صاحبي يتحدث بحماس وثقة.. أجبته...

- كلا.. لا أعلم كم لغة يتحدثها الناس...

قال:

- ولا أنا.. ولكن في بلادنا هذه نتحدث أكثر من مائة وعشرين لغة.. الرئيسة منها أربع لا علاقة بينها.. أي أن الذين يتحدثون هذه اللغات الأربع لا يفهم بعضهم بعضا..

- سبحان اللّه.. حقا إنها آية من آيات اللّه..

- ويمكنك أن تضيف إلى لغات البشر (لغات الدواب والطيور).. فقد أخبر اللّه أنها أمم أمثالنا.. ولها لغتها وذكر اللّه من ذلك حديث الهدهد لسليمان عليه السلام.. وحديث النملة لصويحباتها.. وذكر اللّه أن سليمان وداوود كانا يفهمان لغة الطير والدواب...

- ولكن اختلاف لغات البشر أعجب من اختلاف لغة الطير والدواب.. وذلك أننا جميعا من أب واحد وأم واحدة وها نحن لا يفهم بعضنا بعضاً...

- وكذلك اختلاف ألواننا.. فينا الأبيض والأحمر والأسمر والأسود ودرجات بين ذلك.. وهذا الاختلاف في الخلق فيه حكمة من اللّه أن نتعارف ونتبادل المصالح.. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات) فلا نشك أن اختلاف الألسن والألوان هو إكمال

في الخلق وهو الحكمة التامة من اللّٰه عز وجل ولكن البشر جعلوا ذلك للتفاخر والتفاضل والتعالي والتكبر.. مع أنه لا دخل لهم في ألسنتهم ولا ألوانهم..

استأذنت صاحبي أن أستقل عربة ذات ثلاث عجلات لأرجع إلى مكان إقامتي.

ومن آياته (٣)

ـ يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الروم).. هذه آية من آيات الله المميزَة.. ورغم ذلك لا يرى فيها كثير من الناس إلا «ظاهرة طبيعية» يتابعونها.. يدرسونها.. ويتنبؤون بموعدها.. وآثارها.. وإن كانت مجرد أمطار أو أعاصير...

ـ وهل يتعارض تعاملنا مع هذه الظاهرة أنها شيء في الطبيعة مع الإيمان بالله؟!

كان السائل أحد الجلوس في الديوان.. من الذين لا أعرفهم..

ـ كلا.. لا تعارض إلا إذا حصرنا الأمر بظاهرة طبيعية ولم نعتبر أنها آية من آيات الله.. وهنا يقع كثير من الناس في المحظور.. فينظرون إلى ما خلق الله في السماوات والأرض من أجرام وحوادث طارئة، أنها مجرد تفاعلات حرارية أو كهربائية أدت إلى ما يراه الناس ويسمعونه من برق ورعد وصواعق.. لذلك نبهنا الله في كتابه العزيز إلى هذه (الآيات) حتى لا ننسى أن خالقها هو الله عز وجل رغم أنها تحدث إذا اجتمعت أسباب معينة.. ولكن الله هو الذي يوجد هذه الأسباب.. ذات مرة انهمر المطر ليلاً في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، فأوحى الله إلى رسوله قال: «**لقد أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر.. من قال مُطرنا بنوء كذا وكذا فقد كفر بالله، ومن قال مطرنا برحمة الله آمن بالله**». (متفق عليه).

استدرك عليّ نفس السائل.

ـ نحن نؤمن أن الله هو الذي خلق هذه الأجرام وأوجد هذه الظواهر، ولكن نقول: إن الانخفاض الجوي هو الذي سبب هذه الأمطار أو أن ظهور النجم (سهيل) أدى إلى هذه البرودة!!

ـ هذا ما أردت.. أن كثيراً من الناس اعتاد أن يسمع بأن الأمطار هطلت بسبب المنخفض الجوي.. أو أن البركان ثار بسبب تحركات أرضية، أو أن الزلزال وقع بسبب الجرف البحري.. هذه تفسيرات لما نراه ونقيسه، ولكن يجب أن نُذَكّر أنفسنا أن الله هو الذي يدبر هذه الأمور جميعاً.. الملتزمون بالتفسير العلمي لهذه الظواهر لا يعتبرون منها ولا يتعظون.. أما المؤمنون فيذكرون الله.. ويرددون دعاء البرق.. ويستعيذون بالله من الزلازل.. ويصلون لله حال الكسوف والخسوف بخوف ووجل.. يدعون الله ويتوبون ويستغفرون... وشتان ما بين الفريقين..

أخذت (جرعة) من الماء أبلل ريقي.. بينما سأل...

ـ ولكن كثيرا من المسلمين أصبحوا ينظرون إلى هذه الأمور على أنها ظواهر طبيعية وحسب..

ـ وهل العبرة في الكثرة؟! إن الله ذكر هذه الظواهر في كتابه وسماها (آيات) والآية هي العلامة الدالة على الخالق.. سبحانه وتعالى.. على عظمته وقدرته وملكه وسيطرته على الكون ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ (الرعد) يرسل المطر لمن شاء ويحبسه عن

من شاء.. يرسل الرياح لواقح، ويرسل الريح عذاباً.. ويظهر قدرته لخلقه في الخسوف والكسوف.. يتذكر المؤمنون.. ولا يزداد الغافلون إلا غفلة، ولذلك يختم الله هذه الآيات بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.. لا لجميع البشر.

ومن آياته (٤)

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾ (الروم: ٢٥).

هذه الأيام ـ بدايات الشتاء ـ يحلو الخروج إلى الصحراء وينصب الكويتيون خياماً يمضون نهاية الأسبوع فيها بعيداً عن ترف المدينة..

ـ أنظر إلى السماء.. سبحان الله.. تراها جميلة بزرقتها في النهار... وجميلة بنجومها في الليل.. إنها من مخلوقات الله العظيمة.

كنت وصاحبي نتمشى في الصحراء بعد صلاة العصر.. ننتظر مغيب الشمس..

ـ بل أخبر الله أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.. نحن عندما ندرس جسم الإنسان نعجب من دقة صنعه وتكامل أعضائه.. هذه السموات أعظم خلقا من الإنسان.. في دقتها.. وصنعها.. إنها آية دالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى.. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (لقمان)...

ـ ولكن قدرتنا على استكشاف الإنسان هي التي تجعلنا نرى الآيات في خلقه.. أما السموات فإننا أعجز من أن نكتشف كل أسرارها..

ـ ربما.. ولذلك نبهنا الله إلى عظم هذه المخلوقات: السموات والأرض.. وكلما زادت قوة المناظير السماوية زادت معرفتنا باتساع هذا الكون.. وكله.. تحت السماء الأولى.. سماء الدنيا..

ـ وهل السماء جرم.. (جسم مادي).. أم إنه مجرد فضاء وهذا اللون

الأزرق انكسار لضوء الشمس؟!

ـ بل السماء جرم... كما أخبر الله.. وبّين رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فقال «**أطّت السماء وحق لها أن تئط**» (متفق عليه).. وذلك من ثقل ما فوقها من ملائكة.. فليس فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك ساجد أو قائم لله عز وجل..

وهذه واحدة من سبع سموات.. محيطة بالكون.. ثم الثانية محيطة بالأولى.. والثالثة.. والرابعة.. إلى السابعة.. ثم الكرسي.. ثم العرش.. والله عز وجل مستو على عرشه.. محيط بكل شيء سبحانه وتعالى.. ولكل سماء أبواب.. تفتح وتغلق بأمر الله.. وإذا قامت الساعة تنفطر السماء.. أي تتشقق.. وتهبط الملائكة.. صفاً.. صفاً من كل سماء.. تحيط بأرض المحشر قبل أن يأتي رب العزة للفصل بين العباد.. وهذه الآية التي ذكرناها تشير إلى أن السموات قائمة لأن الله أقامها.. دون عمد.. ودون أساسات.. بل تقوم بأمر الله عز وجل.. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ (الرعد)... وهذه الآية ـ قيام السموات ـ تنتهي بأمر الله عندما تقوم الساعة فتنفطر.. وتنشق. وتمور.. ويأمر الله الملك بالنفخ في الصور.. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (الروم).. وذلك أن جميع الأجسام سوف تخرج من الأرض.. التي دفن منها والتي لم يدفن.. يخرجون سراعا.. يجيبون الداعي.. حيث يناديهم للاجتماع في أرض المحشر.. كل مجموعة مع

بعضها البعض.. حفاة عراة غرلا .. ثم يكسوَن كل حسب عمله.. ويشهد عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم.. هذه الآية ستبقى ولن تزول.. وما يسمى (ثقب الأوزون).. ليس في السماء.. وإنما ظاهرة كونية في هذا الكون.. مثل الرياح المغناطيسية.. والألسنة الشمسية التي تتطاير بين الشمس.. أما السماء فمخلوق عظيم سيبقى حتى يوم القيامة ثم يزول بأمر الله..

ومن آياته (٥)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ (الروم: ٢٦)

إعتدت وصاحبي أن نلتقي بعد التراويح مرتين في الأسبوع نقضي بعض الوقت دون ترتيب مسبق لما نفعل.. ربما تريضنا.. أو زرنا بعض الأصدقاء القدامى.. أو تجولنا في المركبة.. أو جلسنا في مقهى..

قررنا تلك الليلة أن نأخذ القهوة على رمال الشاطئ.. الباردة..

ـ هذه النسائم العليلة تُرجع إلى المرء راحته وهدوءه بعيداً عن الضوضاء.. وصخب الشوارع والأسواق..

ـ إنها آية من آيات الله.. هذه الرياح الجنوبية الرطبة تبشر بقدوم المطر.. وذكرها الله في سورة الروم.. بأنها إن جاءت بالغيث.. فهي رحمة من الله عز وجل.. وكذلك هذه الرياح تسيّر السفن في البحر...

ـ ولكن السفن الآن لا تحتاج للرياح.. بل ربما اشتداد الرياح يضرها!!

ـ هذه الرياح التي تضر بني آدم هي الريح.. لقد وصف الله الرياح بأنها مبشرات.. وأنها لواقح.. والريح وصفها.. بأن فيها عذاب أليم.. وأنها عقيم.. وأنها صرصر عاتية.. وحتى السفن التي تعمل بالآلات بحاجة إلى احتراق الهواء لتتحرك آلاتها.. والمؤمن يتعامل مع هذه «الظاهرة الطبيعية» على أنها من آيات الله.. ومن جند الله عز وجل..

إذا هبت الرياح دعا.. «**اللهم إنا نسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**» (صحيح مسلم).. وأنت ترى في أنحاء كثيرة من العالم ما يصيب الناس من دمار وهلع وخوف إذا أصابتهم الأعاصير.. ولكن لا يتعظ بكل هذا إلا المؤمن.. فهي آية من آيات الله ولكن لا يعقلها إلا العالمون.. ولا ينتفع بها إلا المؤمنون..

ـ وهل نؤمن بأن هناك ملَك مكلّف بالريح.. يأمرها بأمر اللّه.. ويسوقها حيث يشاء الله عز وجل؟!

ـ إذا ثبت في الحديث الصحيح أن هناك ملك للرياح نؤمن بذلك.. كما ثبت في الصحيح أن للجبال ملَكا.. ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ٣١﴾ (المدثر).. والملائكة لا يحصي عددهم.. ولا عملهم إلا اللّه عز وجل...

ـ وماذا عن الذين يسبون الريح.. ويلعنون العواصف؟!

ـ هؤلاء من الجاهلين.. وإن كانوا يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا.. ولكنهم بالتأكيد غافلون عن حقائق الأمور... فلا يجوز سب الريح.. وإنما يدعو المؤمن إذا هبت الرياح ويرجو أن تكون رياحاً مبشرات.. ورياح رحمة ونعمة من الله لا رياح عذاب ونقمة من الجبار عز وجل.. وإنما الرياح خلْق من مخلوقات الله تسير بأمر اللّه عز وجل.. ولم يسخرها إلا لعبده نبي اللّه سليمان عليه السلام... استوقفني...

ـ .. ما معني الآية... ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ (سبأ :١٢)؟!

- لقد سخّر اللّه الريح لسليمان عليه السلام تحمله حيث شاء.. فكان يقطع في نصف يوم ما يقطعه الراكب في شهر.. والغدوّ.. الذهاب في أول النهار.. والرواح.. في آخره.. فيقطع في اليوم الواحد ما يقطعه المسرع في شهرين.. وهذا من نعمة اللّه على نبيه سليمان عليه السلام وعموما فالرياح آية ونعمة من آيات اللّه.. أوجدها اللّه ضمن الآيات الأخرى.. الأرض والسماء والشمس والقمر.. ودورانها.. وترتيبها.. وكل شيء يتحرك بتدبير اللّه.. لا تعارض ولا توقف حتى تقوم الساعة.. ولكن.. لا يتدبر إلا المؤمنون.

ومن آياته (٦)

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ (فصلت ٣٧)

ـ كثير من الناس يحب الليل.. يرتاح لسكونه.. ويتمتع بنجومه..

ـ أنا من الذين يعشقون السفر ليلاً.. براً أو جواً.. أو بحراً...

ـ بافتراض هدوء الجو ومناسبة الحرارة..

ـ بالطبع..

كنت وصاحبي في إحدى النزهات البحرية الليلية...

ـ هذه آية من آيات الله عز وجل.. وكذلك النهار.. ضدان.. متكاملان.. يطول هذا فيقصر الآخر.. ينسحب هذا ويدخل الآخر.. بتوافق وانسجام.. من تدبير الله عز وجل.. وفيهما الشمس والقمر.. جرمان سماويان يدوران في نظام دقيق.. يبهر العقول لأنه من صنع الخالق عز وجل.. وجعل الشمس سراجاً.. والقمر نوراً.. الأولى نورها منها والثاني نوره مجرد انعكاس لنور الشمس.. آيتان ربما يوسوس الشيطان لبعض بني آدم أن يعظمهما تعبدا.. فقال الله بعد ذكر هذه الآيات ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ (فصلت: ٣٧)...

قاطعني...

ـ ولكن ألم يقل إبراهيم في بادئ الأمر أن القمر.. إله.. والشمس إله؟

ـ كلا.. بل كان إبراهيم حنيفاً مسلماً يؤمن بالله عز وجل.. والحوار الذي ذكره الله على لسان إبراهيم أنه قال عندما رأى القمر.. ﴿هذا ربي﴾ فلما أفل قال ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.. هذا الحوار إنما جادل إبراهيم قومه ليبين لهم فساد منطقهم في التعرف على الله عز وجل...

فعندما رأى الشمس بازغة ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾.. فتبين للقوم أن منطق الجمال.. والعلوّ.. والحجم... وغير ذلك.. لا يوصل إلى اعتبار هذه المخلوقات آلهة.. فتبرأ إبراهيم من أصنام قومه ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الزخرف) فهذه المخلوقات أَوْلَى من الحجارة ولكنها لا تصلح أن تكون آلهة.. فأقام الحجة على قومه.. ولكنهم أَبَوا.. فلجأ.. إلى المرحلة الثانية وهي.. تكسير الآلهة.. ليبين لهم أن هذه الآلهة لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً.. فكيف تنفع غيرها.. أو تُعبد.. ولكن العناد زاد في قومه.. فأرادوا حرقه وقال الله.. ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ (الأنبياء)».. هذه حكاية إبراهيم مع قومه.

إستلقى صاحبي مستغلاً المساحة أمامه في القارب..

ـ وهذه النجوم.. تذهب في النهار ونراها في الليل!!

ـ هذه أيضا من مخلوقات الله.. ولا تذهب في النهار ولكننا لا نراها نتيجة ضوء الشمس.. فإذا ذهب نور الشمس ظهرت لأعيننا وهذه بعضها كواكب.. وكلها تزين السماء الدنيا.. وترشد الناس

في ظلمات البر والبحر.. وتحمي السماء الدنيا من شياطين الجن الذين يحاولون أن يسترقوا السمع ليعلموا ما يقال في السماء.. وكلها مخلوقات.. خاضعة لأمر اللّه.. لا تحيد عما خلقت لأجله.. حتى تقوم الساعة.. عندها.. الشمس تُكَوّر... والنجوم تتكدر.. والسماء تنشق.. وتقوم الساعة.

ومن آياته (٧)

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (فصلت).

ـ كثيراً ما يذكر الله إحياءه للأرض بعد موتها ليعتبر الناس بأنهم سيبعثون بعد الموت.. مثلاً يقول الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (يس).. وعن الرياح.. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (الأعراف).. وهكذا.. لأن إحياء الأرض من أعظم النعم التي يتمناها كل واحد.. والأرض يلتصق بها كل واحد.. فإذا أُحييت بعد موت حصل ذلك أمام أعين الناس.. فيعتبر كل من في قلبه الإيمان والعلم.

ـ ولكن لماذا وصف الله الأرض بالخشوع؟!

ـ (خشع) لغة تعني (خضع).. و(ذلّ).. و(استكان).. وكذلك وصف الأرض أنها (ذلول).. مبالغة في تذليلها لابن آدم.. فالبشر يفعلون ما يشاؤون في الأرض.. يشقونها.. يحفرونها.. يدمرونها.. يحرقونها.. ولو تفكر أحدنا لرأى أن الله سخر الأرض أكثر مما سخر البحر.. وسخر البحر.. أكثر مما سخر الهواء.. وكلها مخلوقات لله عز وجل تستجيب لأمر الله دون اعتراض.. فالأرض فيها من الآيات الكثير لمن تدبر...

كنت وصاحبي في طريقنا إلى السوق بعد صلاة الجمعة قبل العشر الأواخر بيوم.

ـ وهل إحياء الموتى كإحياء الأرض؟ أعني لماذا يجمع الله بينهما؟!

ـ إحياء الأرض شيء مادي يراه كلُّ ذي عين ويحصل أمام البشر في الدنيا، أما إحياء الموتى فلا يراه أحد إلا يوم القيامة.. فأراد الله أن يقيم الحجة على هؤلاء المنكرين.. كما أقام عليهم الحجة بأن إحياء الخلق مرة أخرى أهون من ابتداء الخلق.. كما هو معلوم عند البشر أن عمل شيء مرة أخرى أيسر من ابتدائه.. مع أن الأمر لله سواء.. إنما هو (كن فيكون)، ولكن بعض العقول لا تؤمن إلا بهذا المنطق الجدلي..

هذا أمر.. والأمر الآخر أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصف لنا في الحديث الصحيح أن الأَبْدان تَبلى... ولا يبقى من ابن آدم بعد أن يدفن في الأرض إلا «عجب الذنب» (مسلم).. وهي الحبة الصغيرة في آخر العمود الفقري كحبة العدس.. فإنها لا تبلى بأمر الله.. فإذا كان يوم القيامة وأراد الله إحياء الموتى.. تنبت الأجساد حول هذه القطعة الصغيرة وتتشقق الأرض فتخرج الأجساد بعد أن تدخلها أرواحها، وهذا الخروج من الأرض يماثل خروج النباتات والزرع.. ثم حياة النبات على الأرض تشبه حياة ابن آدم.. ولذلك ضربه الله مثلا في أكثر من موضع في كتابه.. ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا

مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الحديد).. ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (الكهف).. وهكذا الحياة.. نمو.. ربيع.. قوة.. ثم ضعف.. واصفرار وحطام.. وهشيم تذروه الرياح.. وكأنه لم يكن شيئا.. فلا يبقى إلا السجل الذي كتبه الملكان.. فقط لا غير... وتُطوى هذه الصحيفة ليأخذها ابن آدم في المحشر عندما تتطاير من تحت العرش... فمنهم من يأخذها بيمينه، ومنهم من يأخذها بشمالة.. ومنهم من يأخذها من وراء ظهره.. ولا يظلم ربك أحداً.

ومن آياته (٨)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الشورى)

ـ يبدو لي أن أكثر الآيات التي ينبه الله عليها خلقه هي خلق السموات والأرض، أليس كذلك؟

ـ ولم لا؟! هاتان الآيتان من أكبر الآيات الظاهرة للعيان.. السموات من فوقنا.. والأرض من تحتنا..وإن كنا لا نرى إلا سماء واحدة هي السماء الدنيا.. وفوقها ست سموات أخرى.. فهي عظيمة بخلقها.. وثبوتها على هذا الارتفاع الذي لا نقدر قدره.. وكل ما اكتشفناه منها.. لا شيء.. لا زلنا ضمن جزء صغير من مجرتنا.. هذه السماء مثقلة من فوقها بالملائكة.. «**ليس فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك قائم أو ساجد لله عز وجل**» (السلسلة الصحيحة).. إن السماء حقا مخلوق عظيم.. وفوقها أخرى.. إلى سبع سماوات.. وكل هذه السماوات والأراضين.. ليست في (الكرسي).. إلا كحلقة في فلاة.. أي كقطعة حديد صغيرة رميت في صحراء شاسعة.. وما الكرسي في العرش إلا كحلقة في فلاة.. فهل يستطيع العقل البشري أن يتصور هذه المخلوقات العظيمة.. بالطبع لا.. ولكن يؤمن بها كما ثبت في الحديث الصحيح.. «**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة**» (السلسلة الصحيحة).

قاطعني.. مستفسرا...

- ولماذا قال الله أنه بث فيهما (دابة)؟

سألته مستوضحا..

- تسأل عن (فيهما).. أم عن (دابة)؟

- كليهما..

- (فيهما).. في جنس السموات.. وجنس الأرض.. ولو أراد الله السموات والأراضين لقال.. (فيها).. ولكن جعل جميع السموات.. واحدة.. والأراضين واحدة.. فأشار إليهما بالمثنى.. أما (الدابة)... فمفهوم (الدابة) على الأرض كل ما يدب عليها.. ولكن ربما يشار إلى (الطير) بأنها دابة.. وهنا إذا علمنا أن جميع هذه المخلوقات محصورة بين السماوات والأرض.. فإنها (تدب) عليهما.. ولا تخرج عن نطاق السماوات والأراضين.. ولذلك جاء في التفسير أن (دابة) هنا تشمل حتى الملائكة والإنس والجن وجميع المخلوقات.. ولذلك ختم الله الآية بقوله ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۢ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الشورى).. ودون شك أن الله قادر أن يجمع خلقه منذ خلقهم متى شاء.. ولكنه عز وجل كتب أن الجمع سيكون لكل المخلوقات يوم القيامة.. حيث يفني الجميع ثم يحييهم ويأمر الملائكة أن تدعوهم.. فيستجيب الجميع.. للداعي.. ويجتمعون.. كل صنف مع مثيله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (النمل).. إنها آية عظيمة لمن تذكر وتدبر..

الطاعة

ـ أحدنا يأتي بالطاعات ولا يدري هل يتقبل اللّه منه أم لا!! وهذا ربما يفتح باباً للشيطان أن يثنيه عن الطاعة إذا كان يشك أن الجهد الذي يضعه في الطاعة ربما لا يعود عليه بشيء.

ـ هذا جزء من العلم.. أما إذا عرف المسلم الأمر كاملاً فإن الشيطان لا يجد له سبيلا إلى قلبه..

ـ ماذا تعني بهذا العلم؟

ـ أعني أن الأعمال لا تكون طاعات مقبولة إلا إذا كانت مشروعة ثابتة في الكتاب أو السنة ويعملها المرء بإخلاص يريد وجه اللّه..

ـ هذا معلوم ومفهوم!! هات مزيداً من التفصيل..

ـ القضية الثانية أن يشعر المرء بالتقصير تجاه اللّه وإن عمل بالطاعات.. فعندما نقول (إن أحدنا لا يدري أيُقبل عمله أم لا؟).. فذلك من باب (عدم تزكية النفس).. ومن باب (عدم التألّي على اللّه).. ومن باب كمال الإيمان.. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون).. بل أحدنا يعلم أنه «**إذا هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن هو عملها كتبت له عشر حسنات**» (أصله متفق عليه).. ونؤمن يقينا أن اللّه يضاعف الحسنات إلى عشرات الأضعاف وربما إلى سبعمائة ضعف وأكثر كل ذلك على ما في قلب المؤمن من إخلاص للّه.. «**إن اللّه ينظر إلى قلوبكم**» (أصله في البخاري ومسلم).. ولكن لا نوجب

على اللّه شيئا.. كل هذا بفضل اللّه وتكرمه على عباده وذلك أنه الكريم الجواد وفضله يسبق عذابه كما أن رحمته تسبق غضبه.

ـ وماذا عن (قيمة) الحسنات.. كيف يمكن معرفتها؟!

ـ الطاعات يوم القيامة (توزن).. لكل طاعة وزن وبعض الأعمال أثقل من بعض.. وأعمال القلوب أثقل من أعمال الأبدان على العموم.. أما أثقل شيء في الميزان يوم القيامة فهو تحقيق (لا إله إلا اللّه).. التوحيد.. وما يتعلق في العقيدة من أمور.. مثل أركان الإيمان.. الإيمان بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر والقضاء والقدر والغيب.. هذه أثقل من غيرها.. ومن الأعمال أثقلها الواجبات.. لذلك كان أحب ما يتقرب به العبد للّه عز وجل (ما افترضه اللّه عليه).. ثم السنن.. وبعض السنن أثقل من بعض.. مثلا من التسبيح الذي يثقل الميزان.. (سبحان اللّه وبحمده سبحان اللّه العظيم).. هذا على العموم.. أما فيما يتعلق بكل فرد بعينه فأثقل شيء هو ما يورث الإيمان والخشوع والتقوى في القلب.. بعض الناس يزداد خشوعهم بالصلاة النافلة.. وبعضهم بقراءة القرآن.. وبعضهم بالذكر..وبعضهم بالصيام.. وبعضهم بقيام الليل.. كل واحد ينظر إلى الطاعات التي تورث إيماناً في قلبه ويستكثر منها.. ويسأل اللّه القبول..

ـ وماذا عن كمية العبادة.. أعني مقارنة بنوعيتها.

ـ إن أحدنا لو تعامل مع اللّه بقلبه لأتى بأكمل ما يستطيع من العبادات، وبالطبع كلما زاد عمر الإنسان وصلح عمله كان هذا أكمل وأكثر أجراً

عند اللّه عز وجل.. وكل ذلك بفضل اللّه.. فأحدنا يرى كرم اللّه وفضله في الأجر على الطاعات.. مثلاً من اعتاد أن يأتي طاعة في ليل أو نهار ثم أصابه مرض أو سفر فعجز عن هذه الطاعة فإنه يكتب له الأجر كما لو أنه كان مقيما صحيحا.. وطرق الخير كثيرة وسبل الطاعات لا حصر لها وذلك حتى يختار كل منا ما يناسب قدراته وعلمه ورغبته فيقبل على اللّه وهو يحب الطاعة.. حتى يجد حلاوة الطاعة ويتلذذ حال قيامه بها.. ويرتاح من هموم الدنيا.. فضلا عن أنه يجمع الأجر الذي ينفعه عند لقاء اللّه عز وجل.

حب الطاعات

اشتكى صاحبي من صعوبة الاستيقاظ لصلاة الفجر.. وذلك في شهر (يوليو) حيث لا يأوي إلى فراشه، إلا بعد الواحدة ليلا.. وإن عزم على أن يؤدي الصلاة في المسجد فإنه يبقى مستيقظاً إلى الأذان الذي يحين في الثالثة والربع تقريبا!!

كنا على موعد لعشاء رباعي مع (السيد).. و(سعد).. والاتفاق أن نلتقي في المطعم تمام التاسعة والربع.. كنت وصاحبي هناك قبل الموعد.

ـ أشعر أن صلاة الفجر ثقيلة لدرجة تمنيت معها لو تؤخر في فصل الصيف إلى بعد طلوع الصبح بقليل.. أستغفر الله.. أريد أن أصليها في الوقت ولا أتمكن من الاستيقاظ.. ولا أستطيع أن آوي إلى فراشي قبل الواحدة.. ماذا أفعل؟!

لم يكن سؤاله بغية الإجابة..

ـ المرء يجتهد بصدق في طاعة الله.. ولكن دعني أذكر لك بعض نقاط المحاضرة التي حضرتها البارحة بين المغرب والعشاء.. ذكر المحاضر أن من نعم الله على العبد أن يجعل في قلبه (حب الطاعة).. بمعنى أن يحب الإنسان (ذكر الله).. و(يتمتع) بذكر الله.. ويفرح قلبه بهذه العبادة.. ويتضايق إن لم يمارسها.. وأن يحب مثلا قراءة القرآن.. فلا تكاد تمضي عليه ساعات.. لا أيام.. دون سماع القرآن إلا ويصيبه الضيق والاكتئاب فإذا سمع القرآن.. انشرح صدره وانفرجت أساريره.. هذه نعمة عظيمة.. ينبغي أن يعرفها الإنسان ويحافظ عليها..

ـ لقد قرأت شيئا من هذا القبيل لشيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله ولكني لا أذكر المحتوى ولا الكتاب..

ـ لقد أعجبني كلام المحاضر.. وأظن أن أحدنا ينبغي أن يسعى إلى أن يقذف الله في قلبه (حب الطاعات).. ويزيد حبه لطاعة معينة بحيث يقبل عليها وهو راغب متلهف.. متشوق.. وإن لم يمارسها لأي ظرف ـ مرض أو سفر أو انشغال ـ يشعر أنه فقد شيئا.

ـ لقد ذكرتني بشرح لتفسير قول الله تعالى في سورة الانشراح.. ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ (الشرح).. الرغبة إلى الله.. تحمل معاني لطيفة.. فيها العقيدة والعلم والعاطفة والعمل.. الرغبة إلى الله سبحانه وتعالى.. إقبال على الله برغبة.. يرغب العبد.. برضى الله..يرغب بما عند الله.. الهداية.. التوفيق.. النجاح.. السداد.. فضلاً.. عن الأمور المادية الأقل أهمية.. الصحة.. الغنى.. الولد.. وبالطبع.. يرغب المرء إلى الله.. ويقبل عليه برغبة.. يريد ما عند الله في الآخرة.. اللطف ساعة الاحتضار.. والثبات ساعة السؤال.. والأمن ساعة البعث.. والتيسير ساعة الحساب.. والفوز بالجنة والنجاة من النار.

ـ فعلا.. إنها نعمة عظيمة لا يعرفها إلا من أنعم الله بها عليه.. أن يحب المرء الطاعات ويتلذذ بها ويجد حلاوتها.. يحب صلاة الجماعة.. ويحب الصلاح والهداية للجميع.. ويحب العفاف والطهارة.. ويحب كل ما يحبه الله ويرضاه.. إنها نعمة عظيمة نسأل الله أن يرزقنا إياها ويديمها علينا.

بُغضُ المعاصي

قررت أن أستقل القطار إلى العاصمة بدلاً من الطائرة رغم أن بحوزتي تذكرة العودة، ولكن لتغيير الموعد كان علي أن أدفع مثل قيمة التذكرة، فضلا عن أني من محبي السفر بالقطار في أوروبا.

تناثر أحد عشر مسافرا في المقطورة التي وقع حجزي فيها، اخترت أربعة مقاعد تتوسطها طاولة لأمدد رجلي أو استرخي كما أشاء، لم أنتبه إلى الراكب قبالتي، انطلق القطار، رتبت لوازم الاسترخاء، القهوة التي اشتريتها من المحطة، كتاب مختصر السيرة، نظارة القراءة، بدأت بالقهوة مستقبلا النافذة أتمتع بمناظر الطبيعة، فاجأني بسلامه والجلوس قبالتي، بل قطع علي متعتي، ذلك الراكب الذي لم أنتبه إليه، كان من الخليج، لاحظ الكتاب، لم يقاوم فضوله، رددت السلام بأفضل منه، بعد حديث غير قصير بدأ حواراً عن العقيدة.

ـ عندما يفكر المرء بارتكاب معصية تُزيّن له، يراها جميلة، ممتعة، غاية في اللذة، فإذا لم يتمكن منها، يحتقر نفسه، لأنه لأجل المعصية يكذب، ويهان، ويدفع الأموال، وينتظر، ويترقب، ويرضى بما لا يقبله عاقل، فيكره نفسه إذا لم ينل مبتغاه.

ـ إن قضية تزيين المعصية ذكرها الله في كتابه ونسبها إلى الشيطان، ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (الأنعام)، ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن

دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (النمل).. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ (الحجر).. فالشيطان يزين لابن آدم الشرك والمعاصي، ويدعوه لها، ثم يتبرأ منه يوم القيامة لأن دوره كان مجرد «دعوة»، كان بمقدور ابن آدم ألا يستجيب لها فهو المسؤول، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (إبراهيم)، لذلك كان على المؤمن أن يزيد من حب الطاعات في قلبه وبغض المعاصي، بل ويجاهد نفسه إن هي أحبت شيئا من المعاصي على أن يبغِّضها لها، ويستعين بالله على ذلك ويدعوه عز وجل، لأن من علامات الإيمان حب الطاعات وبغض المعاصي، حتى يتحقق حب من يعمل الطاعات وبغض من يقع في المعاصي.

- ولكن كيف يبغض الإنسان المعصية - خاصة في الغرب - وكل شيء يزين المعصية ويدعو لها؟

- إن الإنسان الذي يخشى على نفسه الفتنة لا ينبغي أن يعرضها إلى مواطن الفتن.. أما بغض المعصية فسبله كثيرة.. ألم تر رجلاً بلغ الستين، انتشر الشيب في رأسه، تتلاعب به فتاة صغيرة، تجعله يركض وراءها، يترجاها، يلبي طلباتها، يقبل قدميها، لأجل أن ينال منها شهوة محرمة! ألم تر رجلا ذا هيبة في مجتمعه، فقد وعيه، فسال لعابه، وربما تقيأ على ثيابه لأجل شراب محرم، ألم تر إنسانا فقد كرامته، يختبئ من الناس،

يتستر بالظلام، يتواجد في أماكن دون مقامه، لأجل صفقة مشبوهة، إن المعصية لا تجلب إلا الذُّل، حتى بين الرجل ونفسه، فكيف يرضى عزيز نفس أن يهان؟ وكيف يقبل كريم أن يذل، لأجل لحظة أو ساعة من المتعة الزائلة، والمشكلة أن صورة هذا الرجل تبقى في أذهان من رآه، فإذا شعر المرء مرة أنه يكره نفسه بسبب المعصية ينبغي أن يحتفظ بهذا الشعور ويتذكره كلما دعته نفسه للمعصية، ويبغض المعصية لأنها تهينه وتذله وتحط من قيمته حتى عند نفسه، وعلى النقيض يحب الطاعة لأنها تعزه وتكرمه وترفعه عند الله، وعند نفسه، وبين الناس.

المعصية...

توترني المكالمات التي تأتي في غير الأوقات المعتادة: بعد صلاة الفجر.. بعد الحادية عشرة ليلا.. وقت الظهيرة.. معظمها يحمل أخبارا سيئة..

نبهني هاتفي أن هناك مكالمة.. كنت أستعد لصلاة العصر من يوم الجمعة.. انتهى الرنين قبل أن أرد.. اتصلت به.. أخبرني أنه ينوي الصلاة معنا، ثم نخرج للبر معا..

شعرت أن شيئا ما يعكر نفسية صاحبي..

ـ ما الأمر يا أبا صالح؟

ـ أشعر أن الذنوب تركبني والمعاصي تتقاذفني والشيطان مستحوذ علي.

ـ هوينك.. أذكرِ اللّه وصلي على رسوله.. لِمَ كل هذا الهم؟!

بعد أن ذكر اللّه وصلّى على الرسول صلى اللّه عليه وسلم قال:

ـ أشعر أنني ضعيف الإيمان.. أقع في الذنوب وأستغفر، ولكنني وأنا أستغفر لا أشعر بالصدق مع اللّه.. لا أشعر بالخوف.. وعظم الذنوب.. والعذاب.. بل ربما أستغفر وأنا أعلم أنني سأعود للذنب..

ـ لا تدع للشيطان إلى قلبك سبيلاً، دعني أبيّن لك بعض الأمور.

«**كل ابن آدم خطّاء**» (الترمذي - حسنه الألباني).. نعم الجميع يرتكب الذنوب.. بل وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته قائلا: «**لو أنكم لا تذنبون لذهب الله بكم وأتى بأقوام يذنبون فيستغفرونه فيغفر لهم**» (صحيح مسلم). فالقضية الأولى هي أن الوقوع في الذنب والمعصية لا مفرّ منه.. والعبرة فيما بعد الذنب.

ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن المؤمن يستغفر وفي رواية أخرى يتوب «**وخير الخطّائين التوّابون**» (صحيح الجامع الصغير).. ولاشك أن التوبة أبلغ من الاستغفار، ولكن الاستغفار من التوبة.. ففي الحديث القدسي «**علم عبدي أن له ربا يأخذ بالذنب ويغفره أشهدكم أني قد غفرت له**» (صححه الألباني - مسند أحمد).

- المشكلة في الصدق مع الله حال الاستغفار.

- دعني أكمل.. إن مبتغى الشيطان أن يقع العبد في الذنب ولا يستغفر، ولكنه ما دام يستغفر فهو على خير ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾** ﴾ (آل عمران) المؤمن لا يصر على ذنب.. وإن تكرر منه الوقوع فيه.

- كيف ذاك.. أليس تناقضاً؟

- الإصرار على الذنب قضية قلبية.. ولكنه إذا استغفر كلما وقع في الذنب وذكر الله تعالى ينوي الإقلاع عن الذنب، فهذا ينال المغفرة.. ولاشك أن الكمال أن يتوب بألا يرجع.. ولكن إن وقع مرة أخرى يرجع ولا

يترك الاستغفار لأنه تكرر منه الذنب.. ففي حوار الشيطان مع رب العزة قال الله: «**وعزتي وجلالي لأغفرن لهم ما استغفروني**» (حسنه الأرناؤوط - مسند أحمد).

ومن شعر أن استغفاره «ضعيف» أتى ببعض الأعمال الصالحة.. كالصلاة، والصدقة، وقراءة القرآن، والتزام الجماعة.. عالماً أن الحسنات يذهبن السيئات.

ـ وماذا عن الذنوب غير العادية؟!

ـ ليست هناك ذنوب غير عادية.. مهما عظم الذنب ومهما كبرت المعصية،، فإن الله يغفرها إذا تاب العبد.. ولكن المؤمن يلاحظ بعض الأمور المتعلقة بالمعصية.. مثلا.. لا يجاهر بالمعصية بأن يرتكبها ويأتي يتحدث بها ويتفاخر.. والمؤمن لا يدعو إلى المعصية ولا يحبها.. وإن وقع فيها.. فتراه يحاسب نفسه على لحظات الضعف.. التي ارتكب فيها المعصية.. وإذا وقع في مخالفة ستر على نفسه واستغفر فيما بينه وبين الله عز وجل.. ويرى أنه على خطر بسبب المعصية، ولكنه يرى أيضا أنه على خير طالما يستغفر الله ويتوب إليه.. والمؤمن كلما تذكر معصية وقع فيها استغفر الله وإن طال الزمن.. والمؤمن يدعو الله أن يعينه على ترك المعاصي واجتناب السيئات، لأنه يعلم أن «لا حول ولا قوة إلا بالله» ويستعين بعد ذلك بالأسباب المادية.. بأن يهجر أماكن المعاصي وأصحاب المنكرات والأجواء التي يسهل فيها ارتكاب الذنوب.. ويحرص أشد الحرص ألا تكون ذنوبه تجاه الآخرين.. كأن يأكل مال غيره.. أو

يغتاب غيره أو يسب غيره.. فإن هذه الذنوب تستوجب «المقاصة» من البشر أو التحلل منهم قبل الممات.

ـ وماذا إذا نسي العبد أنه أخطأ في حق أحد المخلوقين؟!

ـ النسيان لا يسقط الحقوق.. سيقتص الله للمظلوم من الظالم يوم القيامة، ولكن إذا صدق العبد في توبته فإن الله يكرم الجميع يوم القيامة!!

بل كرم الله لا حدود له.. بعض العصاة يشفع لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ويخرجهم من النار.. وبعضهم يخرجهم الله ـ عز وجل ـ من النار.. رغم أنهم لم يستغفروا ولم يتوبوا.

وكما جاء في الحديث «**لو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة**» (البخاري).

ولكن العبرة أن أحدنا يأخذ بالأسباب ويجتهد قدر الاستطاعة أن يجتنب الذنوب جميعاً.. وإن وقع في شيء استغفر وتاب.. ولا يتوقف المؤمن عن الاستغفار.. «**وطوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرا**» (سنن ابن ماجه – صححه الألباني).

الرغبة في المعصية؟!

- إني لا أشعر بالآثار السيئة للمعصية.. أسمع في خطب الجمعة أن المعاصي تورث ضيقاً في النفس وقلة في الرزق وسوءا في التعامل مع الآخرين.. وشعوري بصدق.. إنه كلام.. مجرد كلام، لا واقع له. فأنا أقع في المعاصي ليل نهار.. نعم لا تفوتني صلاة الجمعة، ولكن معاملاتي ربوية، أسمع الأغاني وأطرب لها.. أجلس على موائد الخمر رغم أني لا أشربها، لأنني لا أحب السكر.

كان صاحبي يناقشني كعادته في الاعتراض على «الخطاب الديني».. تركته يسرد كل ما لديه.. أحاول أن أجد مدخلا فاعلا للرد عليه.

- ابتداء.. شعور الإنسان ليس هو المعيار للحكم على وجود الأشياء.

- هذا صحيح.. ولكن إذا قلت إن فعلت كذا شعرت بكذا، فالشعور قد نستخدمه لقياس وجود الشيء من عدمه، ولكن الصحيح أن شعور الإنسان ليس بمعيار.

- جيد.. عندما يقول العلماء إن المعاصي تورث الضيق في النفس، ويتحدثون عن شؤم المعصية فإنهم يستدلون على ذلك بالقرآن والسنة.. مثلا قول الله عز وجل.. ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ (التوبة) في قصة أهل التوبة من الغزوة التي تخلفوا عنها.. ومثل قوله ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن

يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ (الأنعام). وهذا الشعور لمن كان قلبه فيه حياة الإيمان.. كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم «**إذا أذنب العبد ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب محيت وإذا أذنب أخرى نكت نكتة أخرى**» (صحيح مسلم) وهكذا حتى يصير القلب أبيض ناصعاً أو أسود من الذنوب.. أما إذا اعتاد القلب على المعاصي، فإنه لا ينكرها وهذه أضعف الدرجات.. كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث إنكار المنكر. «**فإن لم يستطع فبقلبه وليس وراء ذلك مثقال ذرة من إيمان**» (متفق عليه)، فالشعور بشؤم المعصية يكون مع وجود درجة من الإيمان والذي لا ينتابه هذا الشعور فعليه أن يبحث عن إيمانه.

لم يتأثر صاحبي بكلامي.. تابع جداله..

ـ ولكن ألم يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن العبد لا بد من أن يذنب.. وكأن الوقوع في الذنب أمر طبيعي لكل ابن آدم.

ـ تعني حديث النبي صلى الله عليه وسلم «**كل ابن آدم خطّاء**» (الترمذي – حسنه الألباني). أم حديث «**والذي نفسي بيده لو أنكم لا تذنبون لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم**» (مسلم).

ـ الحديث الثاني!

ـ هذا الحديث لا يعطي الحق للعبد بالمعصية، بل يعطيه طوق النجاة

من الإستمرار في المعصية.. فكثير من الناس لا يرجعون إلى الله بسبب كثرة معاصيهم واستمرارهم في المعصية لفترة طويلة. هذا الحديث يعلمنا ألا نقنط من رحمة الله، وباب التوبة مفتوح مهما كنا قد ارتكبنا من المعاصي في الماضي.. كما قال الله ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر).. يغفر جميع الذنوب لمن تاب.. واستغفر وأناب.. أما الذي يصر على معاصيه ولا يرى في ذلك شيئا.. فهذا لا تنطبق عليه هذه الآية بل آيات الوعيد والعذاب.. فليس لأحد الحق في معصية الجبار لأنه مطلع عليه ومحاسبه على عمله، فكيف للعبد أن يتنعم بملك سيده ثم يعصى أمره ويأتي نهيه بعلمه وتحت نظره.. ولله المثل الأعلى.

المعصية... مكلفة... ومتعبة

مشكلات السفر كثيرة وكما جاء في الحديث «**السفر قطعة من العذاب**» (متفق عليه).. تبدأ.. بجارك في الطائرة.. معظم الأحيان تستطيع أن تتجنب هذه المشكلة بالنوم.. إن كنت ممن يستطيعون النوم في الطائرة في الرحلات الطويلة.. ولكن إن لم تستطع.. وكان جارك من الفضوليين؟!

ـ أنا في طريقي إلى نيويورك في رحلة عمل لثلاثة أيام ثم سأرتاح يومين وأرجع إلى لندن. وأنت؟

هكذا بدأ جاري حواره.. وبعد خمس دقائق من الحديث والتعرف قررت التفاعل معه والاستمتاع بالحوار..

ـ أنتم عندما تشربون الخمر.. حتى الثمالة.. كيف يكون شعور أحدكم؟

ـ إنه شعور لايمكن وصفه.. إنها تجربة.. وحالة يجب أن تحدث للإنسان حتى يستطيع أن يعرفها!!

ـ أعني.. ما المتعة.. في أن يفقد الإنسان عقله!!

ابتسم قبل أن يجيبني..

ـ القضية ليست المتعة.. إنها تجربة وحالة.. ومن قال إنها متعة.. بل كل من يشرب حتى الثمالة.. يشكو صداعا شديدا في اليوم التالي..

ولاسيما إن لم يكن قد نام لساعات طويلة.. وكل من يكثر من هذه الحالة.. يعلم أن خلايا المخ تدمر ويظهر أثر ذلك جليا مع تقدم العمر.. هذا عدا مشكلات المعدة والكبد.

- إذن لماذا؟

- لماذا؟! هكذا هي الحياة.. في المناسبات الخاصة.. السعيدة جداً.. تشرب حتى الثمالة.. كأي (عُرف) آخر.. في الصباح تشرب القهوة.. وأثناء العمل تأكل غداء خفيفا.. وفي نهاية الأسبوع تعمل في البيت أحياناً أو تخرج إلى نزهة.. إنها (أعراف) مجتمعنا...

- ولماذا لا ينظر أحدكم إليها من ناحية اقتصادية وطبية...

- لاشك أن هذه النظرة (العقلانية).. صحيحة.. فهذه الأشياء تكلف.. وتتعب.. ولكنه (العُرف) كما قلت. حتى تكون ضمن النسيج الاجتماعي.. تفعل هذا...

- وماذا عن (الزنى)؟

- ماذا عنه؟ إنه عرف آخر.. ولكن حسب علمي أنتم أيها المسلمون تعدون كل علاقة خارج إطار الزواج.. (زنى).. أما نحن فلا.. (الزنى) هو العلاقات التي تكون مقابل ثمن.. وهذه مكلفة أيضا.. ولكننا نمارسها وإن كنا لا نقرها عَلَناً بوصفها عُرفاً اجتماعياً...

- استمر صاحبي في الحديث.. وأنا أتظاهر أنني أستمع إليه.. ولكنني في الحقيقة انفصلت عنه.. وأخذت أحدث نفسي بنعمة الإسلام.. ورحمة

الله لعباده أن شرع للمسلمين هذا الدين يحفظ أموالهم.. وعقولهم.. وأسرهم.. إنها نعمة عظيمة رغم أن الشيطان يصورها لبعض المسلمين أنها (تضييق) وكتم للحريات.. ومنع للمتع.. وفعلا.. لو تفكر أحدنا في أي معصية يرتكبها.. في بلادنا.. أو في الخارج.. أي معصية مهما صغرت.. ومهما حاول شياطين الإنس أن يزينوها أنها من (المرح البريء).. سهرات الغناء... ألا يبذلون الأموال ويتعبون الأجساد.. في الانتظار والسهر.. ثم الإرهاق في اليوم التالي.. وكأن شيئا لم يكن.. (الخمر)... (الأفلام).. سَمِّ ما شئت.. أين هذا من متعة القلب.. بذكر الله في جوف الليل الآخر؟...أين هذا.. من ركعتين قبل أذان الفجر؟.. أو تلاوة آيات من كلام الله عز وجل في خلوة بين العبد وربه.. لا يملك المؤمن إلا أن يشكر الله ويسأله دوام أعظم نعمة عليه.. نعمة الهداية.

ما في أنفسنا

شعرت بحاجة للحديث مع أبنائي.. لأسباب كثيرة.. أخبرتهم عن موعد الاجتماع قبلها بيوم.. دعوتهم ـ دون والدتهم ـ في مكتبي المنزلي.. لم أحضِّر شيئا محدداً، وتركت الأمور تطرح نفسها.. بدأت بسؤالهم عن ظنهم في سبب الاجتماع؟

أجابت الصغرى ـ وقد تجاوزت العشرين ـ عن السفر...

ـ كلا.. ولكن من الممكن أن نتحدث عن السفر بعد قليل...

إنتظرت إجابة أخرى.. لم يجب أحد.. فابتدأت الحديث..

ـ في الواقع خواطر في قلبي أود أن أبثها إليكم.. لعل فيها الخير لنا جميعا.. اعلموا ـ أبنائي ـ أن أحدنا يبحث عن السعادة ويجتهد للوصول إليها، وكثير منا يبحثون عن السعادة بعيدا، بينما هي بين أيدينا.. الطمأنينة.. الراحة.. الاستقرار، أمور تشكل أركاناً للسعادة.. وهذه لا تنال إلا برضا الله.. وتوفيق الله.. وعطاء من الله عز وجل.. ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ .. هذا في الدنيا ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل).. في الآخرة..هذه الآية نؤمن بها لأنها كلام الله وفي كتاب الله عز وجل.. فلا ينبغي أن نغفل عنها..

اعلموا أيها الأبناء أن الله يعلم ما في أنفسنا.. يعلم سرنا وجهرنا.. يعلم ما نخفي وما نعلن.. كل مِنّا يقع فيما لا يرضي الله بعيداً عن أعين

بعضنا - ولا أعني أحداً منكم بعينه - فأنت تخطئ وأنت تخطئين... كلنا يخطئ.. ولكن لنعلم أن الله يرانا.. والملك يسجل سيئاتنا.. ونحن في النهاية ننال جزاء أعمالنا في الدنيا والآخرة.. صدقوني.. إن المعصية لها أثر سيىء في الدنيا والآخرة...

في الدنيا همّ..وغَمّ..وقلق..وفي الآخرة..حساب..وعذاب..الجميع سيحاسب لا تظنوا أنكم شباب في مقتبل العمر، فلن ينالكم الحساب والعذاب.. كلا.. أنتم مسؤولون مسؤولية كاملة عن أعمالكم كلها.. عن التهاون في الصلاة.. وعن الغيبة.. وعن النميمة.. وعن الكذب.. وعن كل سيئة وإن كانت مثقال ذرة.

كنت أحدثهم وأنظر إلى وجوههم.. وقد انحنت الرؤوس وأطرقت وانكسرت الأبصار.. تنظر من طرف خفي.. إلا الصغرى، فإنها كانت معتدلة في جلستها تبتسم أحيانا.. تابعت حديثي..

- إنني أحدثكم اليوم لا لأني رأيت شيئاً محدداً على أحدكم، ولكني أراكم تبحثون عن السعادة في أماكن غير مناسبة.. أراكم - ربما - غافلين عن أهم أركان السعادة.. رضا الله عز وجل.. ورضا الله لا يكون إلا مع رضا الوالدين.. لا أزعم أنني أستطيع أن أجبركم على شيء.. ولكن إعلموا يقيناً أنني أتمنى لكم من الخير أكثر مما أتمناه لنفسي.. أريد أن أراكم على خير في الدنيا والآخرة.. أريد أن أبين لكم.. والأمر في النهاية يرجع إليكم، من أراد أن ينتفع بما أقول فله ذلك، ومن أراد أن «يطنش» فله ذلك أيضا.. وكل ينال ما يسعى إليه.. ولكن أريد أن أذكركم

مرة أخرى.. أن الله يعلم ما في أنفسنا.. ويعلم ما نخفي وما نعلن.. وهو المطلع على سرائرنا وعلانيتنا.. وسوف يحاسب كلاًّ منا على عمله.. ولا يظلم ربك أحدا.. لا تغفلوا عن هذه العقيدة.. هذه الحقيقة لا ريب فيها.. ولاشك.. وإنما يأتي الشيطان أحدنا فينسيه.. ويغويه.. فالمؤمن يتذكر.. والغافل يتمادى.

سلامة الصدر

يشعر المرء أحيانا بالغربة مع من حوله في العمل أو المنزل أو الديوان أو الأهل في الاجتماعات الأسرية الكبيرة.. بعضهم يحاربه ولا سيما في العمل.. وبعضهم يستهزئ به.. وبعضهم يغتابه.. وبعضهم يبهته.. ومع كل ذلك هو مأمور ألا يبغض ولا يغتاب ولا يعادي ولا يقاطع.. بل إن كان الأمر مع الأرحام فواجب عليه أن يصل من قطعه ويحسن إلى من أساء إليه لأجل الرحم..

كان صاحبي يبث همومه ونحن ننتظر أذان العشاء في المجلس أمام المسجد..

- ولكن أتدري أن الأمر يسهل إذا عالج أحدنا قلبه..

- ماذا تعني؟

- إذا سَلِمَ قلب الإنسان وكان كما أمره الله عز وجل فإن الأمر يهون عليه.. سلامة الصدر من أعظم الأعمال التي تعين على كثير من الطاعات.. بل وتبلغ بالإنسان منازل الجنة..

- ولكنها قضية صعبة؟!

- لا شك ولكنها ليست مستحيلة.. وكل أمر من أمور الشريعة إذا بدأ الإنسان به بإخلاص واستعان بالله فإنه يسهله له.. وسلامة الصدر بيَّنها الله في كتابه والرسول صلى الله عليه وسلم في سنته..

ـ وهل الأمر بهذا الوضوح والتحديد؟!

ـ أحدنا يجتهد.. مثلاً لا بد أن يكون القلب خالياً من الشرك بريئا منه مليئا بالتوحيد الصحيح.. العقيدة بكل أركانها يجب أن تكون صحيحة ثم يجعل تعامله مع الله.. يعلم أن غنيمة الدنيا التي عند بعض الناس إنما هي من عند الله وبأمر الله عز وجل.. ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (النحل).. هذه الثروات الطائلة والعقارات والمركبات والمراكز العلمية والأبناء والأهل.. كل هذا من عند الله أسبغها على من شاء من عباده.. فلا ينظر إلى ما عند الناس.. بل إلى ما بيد الله عز وجل.. ويسأل الله ما شاء من فضله.. ويعلم يقيناً أن الأمر كله لا يتعدى (الابتلاء) و(الاختبار)..

فيحسن التعامل مع ما بيده.. ويعلم يقيناً أنه لن يغير شيئا أراده الله.. وينظر إلى نِعَم الله ويضعها في مكانها.. لا يقدم نعمة الثراء على نعمة العافية.. ولا يقدم نعمة العافية على نعمة الهداية.. فيكون على يقين بأن الله أنعم عليه بل أسبغ عليه نعمه ويجب عليه أن يؤدي (حق الشكر) لله.. أما النعم المادية.. فيكفيه.. سكن يؤويه وطعام يغنيه وأمن يحميه.. فالدنيا ليست أكثر من ذلك..

ـ هذا تبسيط للمسألة؟!

ـ بل هذا هو العلم اليقين والحق الذي يجب أن يؤمن به كل إنسان فتح الله عليه ووفقه إلى الطريق الصحيح.. بهذه العقيدة يعيش المرء حياة هنيئة.. قلبه سليم من أمراض الحقد والضغينة.. بل ممتلئ بحب

الخير لغيره.. لأنه يعلم يقينا أن إيمانه لا يكمل إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه.. وإذا رأى أحداً في مصيبة دعا اللّه أن يفرج عنه وسعى بما يستطيع أن يكون سببا في تفريج الهموم وتنفيس الكربات يريد وجه اللّه لأنه يتعامل مع اللّه عز وجل ويعلم أنّ «**من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**» (مسلم).

متى يسجل الذنب؟

شباب المسجد ـ وأسميهم (شباب) تجاوزاً حيث إن أعمارهم بين الأربعين والستين ـ يجتمعون ثلاث مرات في الأسبوع.. السبت والثلاثاء والجمعة.. أشاركهم ديوان السبت للدرس الأسبوعي.. كانت قراءتنا في تفسير سورة القلم.. (نون)..

ـ لقد خلق الله أول ما خلق (القلم).. وأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.. وهذا في اللوح المحفوظ.. وهناك قَدَر آخر يكتبه الملك حين يجمع خلق أحدنا في بطن أمه.. وهذا القدر المتعلق بالخلق والرزق والعمر والمصير.. وهناك قَدَر ينزل كل عام (ليلة القدر) على أصح الأقوال وهذا القدر قد يتغير ليوافق ما كتب في اللوح المحفوظ ومن ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**» (السلسلة الصحيحة).. فهذا القَدَر المكتوب قد يتغير فهو أحد تفاسير قول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ (الرعد) .

ـ وهل هذا هو الكتاب الذي نحاسب عليه يوم القيامة؟

كان السائل أبا فيصل..

ـ كلا.. إنما الكتاب الذي نحاسب عليه كتاب محدث يكتبه الملكان بعد بدء التكليف وإلى أن يُتوفى الإنسان.. يكتبان الحسنات والسيئات..

ـ هل هما كتابان أحدهما للحسنات والآخر للسيئات؟!

ـ لقد أخبر الله أنه يجمع ذلك في كتاب واحد يوم القيامة ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾﴾ (الانشقاق).

ـ وهل كل حسنة تكتب وكل سيئة تكتب؟

ـ نعم.. وبعض الحسنات تكتب مضاعفة عشر مرات إلى سبعمائة ضعف.. وبعضها أكثر بأضعاف لا يعلمها إلا الله.. وبعض الحسنات تكتب كما هي لعظم أجرها.. لأن جزاءها لا يعلمه إلا الله..

ـ وماذا عن السيئات.. والذنوب؟

ـ الذنب يكتب إذا بلغ مرحلة (الإرادة الجازمة) وإن لم يرتكبه الإنسان.. مثل حديث.. «**القاتل والمقتول في النار**» (متفق عليه).. وذلك أن المقتول كان حريصا على قتل صاحبه، وكانت لديه إرادة جازمة على الفعل، ولكنه لم يستطع تنفيذها.. وكذلك من عقد العزم والإرادة بأن يفسق إذا ملك مالا.. لحديث «**واثنان في الوزر سواء.. رجل قال لو إن عندي مال هذا لفعلت مثل هذا**» (ابن ماجه – صحيح الترغيب والترهيب).. ومن هنا نفهم معنى الحديث «**إذا هم العبد بسيئة قال الله للملائكة انظروا عبدي فإن هو فعلها فاكتبوها سيئة وإن لم يفعلها فاكتبوها حسنة إنما تركها من جرائي**» (متفق عليه).. فمن ترك السيئة خوفا من الله كتبت حسنة..

ـ وهل هذا معنى (الإصرار) على الذنب؟

ـ نعم.. الإصرار هو العزم الجازم على ارتكاب الذنب ولا يمنعه من

ارتكابه إلا العجز أو الحيلولة دونه وهذا يتساوى في أصل الذنب مع من يرتكبه فعلا.. يقول ابن المبارك: المصر على شرب الخمر هو الذي يشربها اليوم ثم قد لا يشربها ثلاثين سنة وفي نيته أنه إذا قدر على شربها شربها..

فالعبرة بالنية الجازمة.. ولذلك الذي يمتنع عن الذنوب في رمضان وينوي العودة إليها بعده.. لا يسمى تائباً.. ولا يثاب إذا كان الترك لمجرد العادة واتباع الناس.. لا يسمى تائبا لأن نيته العودة إلى الذنوب متى سنحت الفرصة.

ذنوب الماضي

لم أَلتَقِ به منذ انتقلنا إلى منزلنا الجديد قبل عشر سنوات.. مساء الأربعاء قررت أن أنجز مهمة شراء حاجيات البيت الغذائية.. محطتي الأخيرة كانت (سوق السمك).. كنت أناقش أحد الباعة.. فإذا برجل يمد رأسه ليرى وجهي.

- (بو معاذ؟).

لم أتعرف عليه.. احتضنني.. بحرارة.. مرة.. ومرة..

- ألم تعرفني؟! (بو نبيل).

كان (بو نبيل) - جاري الثالث جهة اليسار - ضحوكاً.بشوشاً.. لم يكن يحضر إلى المسجد.. لأنه لم يكن يصلي.. ألتقيه في مجلس جاري الذي كان يحرص على جمعنا مرة كل أسبوع.. جميع الجيران.. وها هو (بو نبيل).. بلحية كثيفة.. عريضة.. ولكن مشذبة..

- ما الذي حصل؟.. وكيف لي أن أعرفك بهذه اللحية التي هي أطول من لحيتي.. وهذه النظارات الطبية.

- أما النظارات.. فقد احتجت إليها منذ شهر تقريبا.. ولا أستخدمها إلا ليلا.. واللحية.. أطلقتها منذ خمس سنوات.

تركنا البائع.. توجهنا إلى القهوة القريبة أخذنا مجلسا منزويا.. قبالة البحر.

ـ الحمد لله أنك رجعت إلى الدين.

ـ نعم.. الحمد لله.. لقد هداني الله.. وفي الواقع الفضل لله أولا.. ثم لزوجتي.. لقد صبرت عليّ كثيرا.. وتعلم أنها منذ أكثر من عشر سنوات وهي تدعوني للصلاة.. والالتزام.. ولكن.. شاء الله أن أدخل ذات ليلة من سهرة متأخرا.. أحست بدخولي..رغم أني حرصت ألا أوقظها.. سألتني إن كنت أريد شيئا.. ثم قامت.. توضأت.. صلت ركعتين.. رجعت إلى الفراش.. تأكدت أنني خلدت إلى النوم قبل أن تنام هي.. هذه الإنسانة.. نعمة عظيمة من الله.. استحييت.. وبدأت طريق الهداية.

ـ الحمد لله.. بارك الله لك في زوجتك.. وأبنائك..

ـ هل تدري.. سأخبرك بشيء لم أخبر به أحدا من قبل.. وفي الواقع أعلم أنه لا ينبغي لي أن أقوله.. ولكنني أحتاج إلى أن أتحدث به مع أحد.. لم يدع لي مجالا للتعليق فتابع حديثه.

ـ إن أكثر ما يضايقني تلك اللحظات التي أتذكر فيها ذنوبي السابقة.. لقد وقعت في الزنى.. وشربت الخمر.. مرات.. وزوجتي لا تعلم.. أتذكر تلك الأيام.. وأندم.. وأحيانا أشعر أنني لم أتطهر بعد من تلك الذنوب.. وأحيانا أشعر أنني من الممكن أن أقع فيها مرة أخرى.. ويتكرر مرات في اليوم الواحد أحيانا.

ـ لا عليك يا أبا نبيل.. الصحابة.. خير البشر.. كانوا قبل الإسلام.. يشربون الخمر.. ويعبدون الأصنام.. وبعضهم حارب الرسول صلى الله عليه وسلم وآذاه.. وتأخر إسلام بعضهم حتى فتح مكة.. فكان في الكفر

أكثر من عشر سنوات بعد ظهور الإسلام.. ومع ذلك تابوا.. وأصلحوا.. وكانوا خير البشر.. المؤمن إذا تذكر ذنباً مضى قد تاب منه.. استغفر الله.. وحمد الله.. وأكثر من عمل الصالحات وأيقن أن التوبة تمحو ما كان قبلها.. ولن يحاسبه الله على ذنب تاب منه.. بل يبدل الله سيئاته حسنات إذا كان صادقاً مع الله.. ويعلم أن الله يقبل التوبة من أي ذنب مهما عظم.. فلا تدع للشيطان سبيلاً إلى قلبك ولا تخبر بذنبك أحدا.. واعلم أن الله يريد بك خيراً أن وفقك إلى ما أنت فيه.

إني تبت الآن

التوبة عبادة يحبها الله ويحب فاعلها.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة).. وليست التوبة مرتبطة بالمعصية فحسب.. نعم.. هي واجبة مع المعصية ولكنها حالة ينبغي أن يكون فيها المؤمن دائماً إمتثالاً لأمر الله تعالى ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ (النور).

هذه مقتطفات من الخاطرة التي ألقاها إمامنا بعد الركعة الرابعة من صلاة القيام.. في اليوم التالي إلتقيته بعد صلاة الظهر.. واقترحت عليه أن نتمشى في الشمس الباردة بمحاذاة الشاطئ.. وافقني..

ـ هل يجب على المؤمن أن يتوب (دائما)؟

ـ إن التوبة (حالة) ينبغي أن يكون فيها المؤمن.. الرسول ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ يعلمنا عن حاله فيقول.. «**والله إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة**» (متفق عليه).. بمعنى أنه يقول «أستغفر الله وأتوب إليه»..وهذه الكلمات تنبع من الشعور بالتقصير في حق الله.. لانشغال في شيء من أمور الدنيا.. أو غفلة طارئة عن ذكر الله.. فيرجع المؤمن إلى الله بالاستغفار والتوبة.. وهذا العمل أعني التوبة.. يحبها الله.. ويحب أهلها.. و(التوابون) هم كثيرو التوبة.

ـ وما الفرق بين هذه التوبة وتوبة العبد المذنب؟

ـ إذا أذنب العبد وجب عليه أن يتوب حتى ينال عفو الله وينجو من

عذابه.. فإن الذنوب تزول بالتوبة.. والتائب من الذنوب كمن لا ذنب له.. أما إذا لم يتب العبد عن الذنب فإنه لا يأمن عذاب الله يوم القيامة.. ولقد رغب الله عباده بالتوبة. بأن أعطاهم (الضمان).. بقبولها.. فقال عز وجل ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ (النساء). فالله يقول للمذنبين.. توبوا.. أتب عليكم.. بشرط أن يتوبوا (من قريب)... والقريب هنا أي لحظة قبل (تيقن الموت).. وكلما كانت التوبة أقرب إلى الذنب كانت أولى بالقبول.. وكلما زاد إيمان العبد قربت توبته من ذنبه.. كما قال الله تعالى في وصف المؤمنين.. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ (آل عمران)..

أخذنا مجلسنا على كرسي قبالة البحر...

- سمعت في الإذاعة ذات مرة عن (توبة فرعون)..

- هذه توبة من أدركه الموت.. وهي توبة مرفوضة.. نفاها الله مرتين في كتابه.. ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ (النساء).. وكذلك عندما أخبر الله عن فرعون وقد أدركه الغرق ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ

ﭐلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ (يونس).. فلم يتب الله على فرعون ولم يقبل «إيمانه» لأنه جاء بعد انتهاء الوقت.. وكذلك توبة من يكون على فراش الموت.. فإن الله لا يقبل توبة هؤلاء.. لذا كان خُلُق المؤمن أن يتوب حال ارتكاب الذنب لأنه لا يدري قد لا تسنح له فرصة للتوبة فيما بعد عندما يأتيه أجله.. ولا أحد يعلم متى أجله.

- والذي يموت ولم يتب من ذنوبه.. ما مصيره؟!

- الذنوب نوعان.. ذنب في حق العباد وهذا لا يغفره الله حتى يعطي صاحب الحق حقه يوم القيامة.. من حسنات المخطئ.. وذنب في حق الله وهذا أمره إلى الله قد يغفر وقد يعذب عليه.. عدا الشرك فإن الله لا يغفره ويخلد صاحبه في النار.

حلاوة الإيمان

ـ يظن كثيرون أن ما تتحدثون عنه من حلاوة الإيمان ولذة المناجاة وطمأنينة القلب.. وغير ذلك إنما هو من قبيل «المثاليات» التي لا وجود لها في الواقع وأن المرء رغم التزامه الصلاة.. بل وصلاة الجماعة.. والصيام والحج.. وربما كل عام.. لا يشعر بما تتحدثون عنه..

صاحبي صادق في حديثه.. صريح.. بسيط.. أحب فيه خصالاً كثيرة.. لا سيما لزومه المسجد وكثرة قراءته للقرآن الكريم.. إلا أن مظهره الخارجي لا يوحي بشيء من ذلك..

ـ إبتداءً.. هذه الأمور وردت في آيات من كتاب الله وأحاديث صحيحة من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.. في الطمأنينة قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ (الرعد). وفي تفاعل الجلود والخشوع.. ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر: ٢٣).. وفي حلاوة الإيمان.. صح الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم.. «**ثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان.. أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره المرء أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار**» (البخاري).. فالشاهد أن هذه الأمور ثبتت فيجب أن نؤمن أنها موجودة سواء شعرنا بها أم لم نشعر بها.. وهذا من الإيمان.. وإذا كنا لا نشعر بها فهذا لا

يعني أنها غير موجودة أو غير ممكنة. فإن الله لا يأمرنا بشيء غير ممكن والرسول صلى الله عليه وسلم لا يحثنا على أمر غير مستطاع!!

ـ أعلم ذلك ولكن كيف يمكن أن نقربه إلى الناس؟!

ـ أنظر إلى هؤلاء الناس في رمضان مثلا.. ألا يُقبلون على القرآن.. أنظر إليهم في حال ضيقهم ألا يلجأون إلى الله ويذكرونه ويتضرعون إليه.. هذه مجرد بدايات.. ولو استمر المرء عليها بإخلاص فإنه سينال ما وعده الله به من حلاوة الإيمان وطمأنينة القلب.. عندما نقرأ في سيرة سلفنا أن أحدهم يقوم ليلة كاملة يكرر آية واحدة!! هل نعدّ ذلك ضرباً من الخيال.. عندما نقرأ أن أحدهم لا يشعر بوحشة السجن أو بلهيب السياط لأنه في ذكر الله.. هل نكذب هذا الخبر؟!

ـ لا أقصد ذلك.. ولكن نريد أن نحث الناس أن يعملوا لشيء يصلون إليه..

ـ من اتخذ الأسباب الصحيحة يصل إليه.. ربما يشعر بحلاوة الإيمان ولذة الذكر وراحة المناجاة للحظة.. ولكنها هناك.. في الحديث الذي ذكرت بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم.. ثلاثة أمور.. حب الله ورسوله.. يتحقق بألا يقدّم أمر أحد على أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.. لا هوى النفس ولا نزغات الشياطين ولا رغبات المحبوبين من الأهل والأبناء.. ولا أحد.. واتباع أمر الله وأمر رسوله بقدر ما يستطيع.. وأن ينقي علاقاته من الأمور الدنيوية.. فلا صحبة إلا لله ولا عداوة إلا في الله.. يحب أهل الخير والصلاح.. جميعهم.. فقيرهم وغنيهم..

رفيعهم ووضيعهم.. لا لشيء.. بل لله عز وجل.. ويكره المعاصي والذنوب، وكلما كبرت المعصية زاد كرهه، حتى يكره حقا.. الشرك كرهه الوقوع في النار.. وهذا لا يتحقق إلا بتعلم التوحيد والشرك... وجزاء الموحدين وعذاب المشركين.. ويستمر في ذلك مخلصاً لله صادقاً.. ويدعو الله أن يرزقه حلاوة الإيمان وسينالها بإذن الله تعالى.

طمأنينة القلب

كتب الله لنا الحج هذا العام برفقة طيبة في الطريق البري إلى مكة المكرمة، كان لصاحبنا برنامج ثقافي حافل أنسانا نوم الطريق، ساعة ينظم لنا مسابقة ثقافية.. وساعة درسا في تلاوة القرآن.. وساعة شرحا لحديث أو آية.. وساعة «غطاوي كويتية».. تحدث عن «الطمأنينة».

ـ غاية الإنسان أن يكون مطمئناً في حياته.. البعض يشعر بالأمان لكثرة ماله والبعض لمنصبه، وهكذا البشر يبحثون عن سبب للأمان.. والله تبارك وتعالى ضرب الأمثال في القرآن ليتعظ الجميع ويتحصلوا الطمأنينة الحقيقية.. والسؤال أريد آيات من القرآن تذكر الطمأنينة.

لم ينتظر (أحمد) ـ وهو أصغرنا سِناً ـ أجاب:

ـ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨﴾

ـ في أي سورة وما تكملة الآية؟

تراجع (أحمد) عن الإجابة.. فتحول السؤال إلى (عدنان).. وكان مسترخيا في المقعد الأمامي.. تظاهر أنه مشغول بالبحث عن دوائه تفاديا للإجابة.. فتبرع صاحبنا بالإجابة بعد أن عجزنا.

ـ يقول تعالى في سورة الرعد واصفاً عباده المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨﴾ (الرعد).. هذا تمام الآية.. والآن أريد آية أخرى فيها ذكر «الطمأنينة» والسؤال لـ «بومشاري»..

ـ الآية التي قال الله فيها لإبراهيم.. فأجاب إبراهيم ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ـ ما تمام الآية؟ وفي أي سورة؟

ـ هذا أقصى ما عندي..

ـ الآية هي.. ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ـ الإجابة صحيحة.. ولكن الآية تبدأ بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (البقرة) إلى آخر الآية.. أريد آية أخرى.

عجز الجميع عن ذكر آية أخرى.. فأجاب صاحبنا..

ـ يقول تعالى.. يذم بعض الناس.. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ (الحج).

من مجمل هذه الآيات نعلم أن «طمأنينة القلب» نعمة عظيمة وهي الغاية التي ينبغي أن يسعى إليها الإنسان في حياته وهي «السعادة» إن شئتم و«الطمأنينة» عكسها «الجزع».. والمؤمن «مطمئن» في الأحوال جميعها.. إن أصابته سرّاء أو ضراء.. وغير المؤمن ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا

﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ (المعارج) فالطمأنينة يتحصلها الإنسان بالتوحيد وعدم الشرك.. وأداء حقوق الله وحقوق العباد.. هكذا باختصار وإجمال.. وما لم تتوافر هذه الأمور الثلاثة لا يمكن أن يتحصل الإنسان على «الطمأنينة».. و«النفس المطمئنة» هي التي تكون «راضية مرضية» يوم القيامة.. وإذا «اطمأن القلب» بالإيمان فإنه لا يضره شيء من أمور الدنيا مهما اشتدت عليه.. ولاشك أنه إذا تحققت الطمأنينة بالأمور التي ذكرناها آنفا تزداد «بذكر الله».. كما أخبر الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ (الرعد).

بذكر الله.. تطمئن القلوب

ـ هناك أحاديث كثيرة وآيات أشعر أنني لا أفهم معناها لعدم شعوري بها من خلال الممارسة.

ـ لم أفهم ما تقصد..

ـ مثلا.. قول الله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (العنكبوت)، وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ (المنافقون: ٨)، وقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ (محمد).. وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.. مثل قوله في حديث قضاء الدين: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**» (صحيح أبي داود).

وأحاديث أخرى لا أرى نتائجها، فأتهم فهمي ولا أشك في صحة الحديث..

صاحبي دكتور في كلية التربية.. تخصصه الثقافة الإسلامية.. حريص على صلاة الجماعة.. لا تفوته صلاة الفجر.. غير ملتح.. ليّن الجانب.. طيب المعشر.

ـ أولا: أظنك تعلم أن معاني الآيات نأخذها من كتب التفسير.. ونؤمن بها.. والآيات التي ذكرت، إما أنها أمر.. أو خبر.. مثلا قول الله عز وجل:

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.. خبر بأن الصلاة ينبغي أن تنهى عن الفحشاء والمنكر.. فالذي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر هناك خلل ما في مكان ما.. إما في صلاته أو إيمانه أو كليهما.. قاطعني..

- والآية التي في سورة الرعد ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.. كثيراً ما أذكر الله تعالى.. ولا أشعر بتلك الطمأنينة التي يتحدث عنها المفسرون وعلماء الإسلام.

- إن هذه الآية.. تبدأ بقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الرعد).. وتعلم القاعدة.. (كمال الأجر مع كمال العمل).. وقدر الطمأنينة بقدر الإيمان.. فأحدنا ينال من الطمأنينة عند ذكر الله تعالى بقدر إيمانه.. من المؤمنين من إذا ذكر الله عز وجل نزل في قلبه من الطمأنينة ما يكفي لأمة من الناس ومن المؤمنين من يكثر من ذكر الله ولا يطمئن قلبه بالقدر الذي يريحه هو.. فكما أن الإيمان درجات، كذلك الطمأنينة.. والواحد منا ربما ذكر الله في لحظات إيمانية.. كما يحصل في ليالي رمضان.. وصلاة التراويح.. فتراه ينال من الطمأنينة ما لا يناله إذا ذكر الله في أوقات أخرى.. وبعد أن ذكر الله حال المؤمنين وتحصيلهم الطمأنينة بذكر الله، أشار إلى قاعدة عامة ينبغي أن تكون عند الجميع ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ (الرعد) فمن لم يشعر بالطمأنينة مع ذكر الله عز وجل، ينبغي أن يراجع نفسه.. هل الخلل؟ في الإيمان أم في الذكر أم في كليهما؟!

ـ وكيف يكون الخلل في الذكر؟!

ـ بعض الناس يذكر الله بأسماء لم تثبت في كتاب الله أو سنة النبي صلى الله عليه وسلم وبعضهم يذكر الله بطريقة لم تثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة أو على هيئة لم تثبت في السنة.. هذه كلها أخطاء في الذكر تجعله عبادة غير مقبولة.. فلا تورث الطمأنينة الشرعية التي ذكرها الله عز وجل.

ـ هل تعني أنه يجب على الإنسان أن يلتزم الصيغ الثابتة في السنة إذا أراد ذكر الله عز وجل؟

ـ لا شك أنه من الأفضل والأكمل أن يأتي المرء بالأذكار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي أفضل الذكر.. ومن الوحي الذي أوحى به الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن لا بأس أن يأتي الإنسان بأذكار خاصة من عنده على ألا يقع في مخالفات شرعية كأن يذكر الله بأسماء لم تثبت له عز وجل.. والله يقول.. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ (الأعراف).. فالمؤمن يلتزم بما ثبت من أسماء الله الحسنى وصفاته.. ولا يذكر الله على هيئة لم تثبت عن رسول الله وصحابته والسلف.. كمن يتحلقون في ذكر جماعي يكررون (هو.. هو.. هو..) مع الدفوف والتمايل والدوران.. فهذه أمور تبطل الذكر ولا يورث هذا شيئا من الطمأنينة في القلب.

الهداية: من بذل أسبابها.. نالها

كثير من الذين أتعامل معهم لا يأخذون قضايا الدين بجد.. نعم يصلون.. ولكن لا بأس عندهم أن يؤخروا الصلاة حتى ربما خرجت عن وقتها.. ويصومون.. ولكن لا يتركون الغيبة.. (مزاحاً يسمونها).. يقرأون القرآن.. ولكن لا يتركون الفاحش من الكلام.. رغم أنني معهم منذ سبع سنوات إلا أنهم كما كانوا منذ أول يوم..

ـ يا أخي الهداية من الله.. ألا ترى فلاناً بدأ بالصلاة بين يوم وليلة.. وفلاناً ترك الصلاة وحلق اللحية بعد أن كان ما كان..

ـ هذه مقولة فيها الكثير من المخالفات.. نعم الله هو الذي يهدي.. ولا يملك الهداية.. إلا هو سبحانه.. ولكن الله عز وجل لا يعطي الهداية ولا يمنع الهداية (عشوائياً).. بل من سعى إليها وبذل أسبابها نالها.. لأن الله سيحاسب عباده على الهداية.. ولا يحاسب الله أحدا إلا على أمر يستطيع عمله وتركه..

ـ ولكن جميع الآيات.. أو قل.. كثيرا من الآيات تقول ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النحل)..

ـ هل مشيئة الله مبنية على العلم أم على الجهل.. إنها دون شك مبنية على العلم الشامل.. بالظاهر والباطن.. وكل شيء.. فمن اتبع أسباب الهدى نال الهداية كما قال الله عز وجل.. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ﭐلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ (يونس).. وقال: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ (المائدة).. أما الآخرون الذين يعرضون عن أسباب الهداية فلا يهديهم الله.. كما قال عز وجل ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ (التوبة) .. وقال ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ (التوبة).. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ (المائدة)..

لم يكن لرأيي قبول عند صاحبي.. استدرك علي..

- هل تزعم أن هناك قاعدة.. تقول.. إن من عمل كذا وكذا وكذا.. نال الهداية..

- نعم.. بل هذا الكلام عقيدة لا شك فيها.. من أراد الهداية صادقاً.. وبذل أسبابها من العلم والعمل والاتباع ودعاء الله عز وجل.. وترك موانعها من التقليد والهوى والكِبر والعجب وغيرها.. نال الهداية بفضل الله.. فليس لأحد حق على الله.. إلا ما جعله الله حقاً على نفسه سبحانه وتعالى..

- وما معنى.. ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ (القصص)؟!

ـ هذه الآية نزلت في حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على هداية عمه أبي طالب.. ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.. فربما بذل أحدنا قصارى جهده في هداية أعز الناس له.. إبناً أو إبنةً أو أباً.. أيا كان.. ولا يوفق في هدايته وذلك أن المدعو لم يبذل أسباب الهداية بنفسه.. فالله عز وجل.. يزيل هم الداعية بأن الأمر ليس بيده لكي يعطي الهداية من يحب.. وإنما الهداية من الله لمن بذل الأسباب وجعل الله لنا في رسوله نوح عليه السلام عبرة حيث تنكر لدعوته ابنه.. فكان من الكافرين.. رغم أن والده كان من أولي العزم من الرسل..

قبول الحق

كثير من الذين أحاورهم في العمل يزعمون أنهم يحبون الدين والتدين والأخلاق، بعضهم.. لا يقبل «تحريم الربا».. وبعضهم يرفض «تحريم الخمر»، وبعضهن يعترضن على «توزيع المواريث».. وغير هذا من أحكام وعقائد يتعلق بعضها بالموت والقبر والآخرة.

أستطيع أن أجمع مواقف كل هؤلاء - رغم تنوعها - في سبب واحد «عدم الخضوع إلى الحق».. فالمرء قد يعرف الحق ولكن لا يقبله وذلك لأسباب كثيرة.. فالعبرة ليست في معرفة الحق وإنما قبول الحق واتباعه.

فإن إبليس - لعنه الله - رأى ملكوت السماوات وعاش مع الملائكة ورأى الجنة والخلق الأول.. عرف الحق.. ورفضه تكبُراً.. أبو جهل وصناديد قريش عرفوا يقيناً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق - أمين، بل زوّج أبو لهب ابنيه عتبة وعتيبة ابنتي الرسول صلى الله عليه وسلم.. رقية وأم كلثوم.. فلما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالنبوة رفضوه وعادوه وحاربوه.. يقول أبو جهل: «تسابقنا نحن وبنو عبد مناف.. ركبوا وركبنا.. سقوا وسقينا.. ثم قالوا منا رسول يوحى إليه من السماء.. فمتى نأتي بهذه؟ والله لا نؤمن به أبدا».

كنت وصاحبي نتجول بالمركبة بعد صلاة عصر الأربعاء نقضي بعض حاجات البيت.. صاحبي يتولى القيادة ويسأل عن عدم قبول الإنسان للهداية إذا عرفها.

– وبعض الناس يعرف الحق.. ويعرف الباطل.. ومع ذلك يرتكب الذنب ويقع في الخطيئة.

فهذا أهون من الأول. هذا ضعف في الإيمان.. في تلك اللحظة!.. أما الأول فهو «كِبر» والعياذ بالله.. ولذلك أهم ما يتربى عليه الإنسان في تعامله مع الله عز وجل هو أن يوطّن نفسه لقبول الحق والعمل به.. وحتى يحصل المرء على هذا الخُلق، يحتاج إلى أمور.. أوَّلُها الإيمان بأن الله رحيم بعباده لطيف بهم يعلم ما ينفعهم، ولا يشرع إلا ما فيه خيرهم.. ويعلم أن العبد مطالب بأن يخضع لخالقه ولا يخرج عن أمره ولا يجادل لأجل المجادلة.. بل كلما أتاه الحق من أحد قبله وحاول أن يعمل به.. ثم يدعو الله عز وجل أن يهديه.. ويثبته على الحق.. فالمؤمن في كل ركعة من كل صلاة يدعو ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ (الفاتحة).. وكثيرا ما كان يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك**» (السلسلة الصحيحة).. فلا يغتر المسلم بدينه.

تباطأ سيرنا حتى توقفت المركبة تماما، حيث كان رجال المرور يخلون مركبتين تصادمتا وسط الطريق.

ـ وهل المؤمن يحكم على إيمانه بأنه قوي أو ضعيف؟

ـ أحدنا يعلم من أحواله ما لا يعلمه الناس.. أما ضعف الإيمان فيمكن معرفته بكثرة الوقوع في المعاصي والتكاسل عن الطاعات.. أما قوة الإيمان.. فلا حدود لها.. دائما هناك مستوى أعلى.. فيسعى المرء ليترقى بإيمانه، حيث يستطيع ولا يغتر.. بل كلما زاد إيمان العبد زاد

حسابه لنفسه.. وزاد شعوره بالتقصير.. والعبرة أن يكون في طاعة اللّه عز وجل وإذا وقع في المعصية تاب واستغفر.. ولا يركن إلى نفسه.. بل يستعين باللّه دائما وبالدعاء والقربات.. حتى يتوفاه اللّه، وهو على الحق الذي جاء من عند اللّه عز وجل.

آثام القلوب .. وطاعاتها

أعرف صاحبي لأكثر من عشرين سنة.. يمكن أن تصنفه بأنه شخص عادي.. لاتفوته صلاة في المسجد إلا لعذر.. يتجنب المال الذي فيه شبهة.. يتجنب الكلام الذي فيه تجريح.. لا يذهب إلى أماكن كثيرة.. عمله .. المسجد.. البيت.. يلتزم بزيارة والدته كل يوم. ولو لربع ساعة ولاسيما بعد وفاه والده.. أقرب أصحابي إلى قلبي.. أحبه في الله وأرجو محبة الله بمحبته..

- هل تدري يا صاحبي أعظم صفة في الإنسان؟!

- الصدق .. والأمانة..

- شيء واحد؟..

- القلب السليم..

- نعم...

- ولكن ما قيمة القلب السليم.. والرجل لا يصلي؟!

قاطعته..

- الذي لا يصلي.. قلبه ليس بسليم.. بل سقيم.

- إذن يجب أن نتفق على تعريف القلب السليم.. فكثير من الناس يظن أن القلب السليم هو الذي يخلو من الحقد والحسد والكبر والغلظة

والبغض وغير ذلك.. من الأمراض.. وإن كان لا يصلي ولا يصوم ولا يقرأ القرآن.. يقولون المهم أنه مع الناس مستقيم.. والذي بينه وبين الله.. شأنه وحده.

- هذا مفهوم غير سليم.. إن القلب الطاهر.. السليم.. هو الذي خلا من الشرك أولاً لأن أعظم داء يصيب القلب هو الشرك.. ثم من الكبر.. ثم من الأمراض الأخرى.. وكان القلب عامراً بذكر الله.. وهذا لا يكون إلا بأداء الفرائض.. وأولها الصلاة... نعم... طاعات القلوب أعظم من طاعات الأبدان.. وآثام القلوب أشد من آثام الأبدان.. ولكن هذا لا يعوض هذا ولا ينفع أحدهما دون الآخر.. القلب المطيع هو الذي ينصاع لأوامر الله جميعاً ابتداء بالعقيدة والعبادات والمعاملات.. وينتهي عن الآثام ابتداء بالشرك والظلم والكبر... والمعاملات أيضا وهنا أود أن أخبرك عن أمر فيك..

نظر إلي مستغربا.. ظن أني سأنتقده لطريقة كلامي..

- فيّ؟!

- نعم... وأنا أغبطك عليه.. فإن الله رزقك قلباً مميزاً..

رأيتك كيف تتعامل مع الخصوم.. ومع الأهل.. ومع الزملاء.. أعرف ما تخاف أن تقع فيه.. وما تقدم عليه.. وبالطبع لا أزكي على الله أحدا.. ولكن أظن أن الله منّ عليك بنعمة عظيمة في قلبك.. وأسأله أن يديمها عليك.. لم يتفاعل معي.. فآثرت متابعة الحديث..

ـ الرسول صلى الله عليه وسلم.. حذرنا من تقلب القلب.. وأمرنا أن ندعو الله أن يثبت قلوبنا.. «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» (الترمذي – ابن ماجه – صححه الألباني) وقال تعالى: في دعاء عباده المؤمنين.. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (آل عمران).. والمؤمن إذا أخذ بأسباب ثبات القلب ثبته الله.. أما المرائي.. فإنه لا ينال التثبيت من عند الله.. كما في الحديث: «**ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى إذا لم يكن بينه وبينها إلا ذراع سبق عليه الكتاب فعمل بعمل أهل النار فدخلها**» (متفق عليه)..

ـ وهل يضمن قلباً سليماً من يقع في المعاصي؟!

ـ القلب السليم غير معصوم عن الذنوب، ولكنه إذا أذنب تاب فزال أثر المعصية عن القلب.. ويرجع للقلب نقاؤه.. أما القلب المريض فإنه يذنب.. ويستمر ويتمادى.. حتى ينقلب قلباً أسود لا ينكر منكراً ولا يعرف معروفاً.. نسأل الله العافية.

البشارات النبوية

إبنتي من المتابعات للأحاديث الدعوية التربوية في التلفاز.. سألتني ذات مرة ونحن على مائدة العشاء المتأخر الذي نتناوله قرابة الساعة العاشرة ليلاً.

- سمعت أن من يصلي اثنتي عشرة ركعة فإنه يبني له بيتاً في الجنة.. هل هذا صحيح؟

- نعم.. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعاً غير فريضة إلا بنى الله له بيتاً في الجنة**» (مسلم).

- ماذا تعني؟

- أعني أن الأحاديث التي يبشر الرسول صلى اللّه عليه وسلم بها المؤمنين لها ضوابط.. مثلاً حديث «**من توضأ فأحسن الوضوء. ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيّها شاء**» (مسلم).. فلا يزعم أحد أنه بمجرد الوضوء والتشهد سيدخل الجنة.. أولاً: يجب ألّا يوجد مانع في عقيدته أو عمله.. مثلاً إنسان يطبق هذا الحديث، ولكنه عاق لوالديه.. وكذلك حديث النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**من قرأ آية الكرسي دُبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت**» (صحيح النسائي).. وحديث: «**من قال لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه دخل الجنة**» (مسلم).. فهل إذا قالها وهو لا يصلي يدخل الجنة.. وهكذا جميع الأحاديث التي تبشر بالأمر العظيم

عند اللّه على عمل يقوم به الإنسان، مثل «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة**» (البخاري) وقَرَن بين السبابة والوسطى.. فإذا كان كافل اليتيم يشرب الخمر والرسول صلى اللّه عليه وسلم يقول: «**لا يدخل الجنة مدمن خمر**» (السلسلة الصحيحة)؟

- إذاً الأمر ليس بالسهولة التي يصوّرها لنا الدعاة والذين يقرؤون هذه الأحاديث..

- كلّا.. وهناك قضية أخرى.. حتى وإن كان الإنسان محافظاً على الصلاة ولا يقع في الذنوب التي تمنع دخول الجنة.. لا يستطيع أحد أن يضمن لنفسه أو لغيره الجنة.. لا ضمان ولا تأكيد.. بل الجميع يرجو أن يكون من الذين ينالون الأجر الذي يبشر به الحديث.. فالمؤمنون يأتون بالطاعات والقربات ويخافون ألا يتقبل اللّه منهم.. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ (المؤمنون).

لا أحد يضمن الجنة حتى ولا المقتول في ميدان المعركة الذي نظن أنه شهيد ونتعامل مع جسده أنه شهيد، فلا نغسله ولا نكفنه، ولكن لا نقول أنه في الجنة تأكيداً.. ولكن نرجو أن يكون من أهل الجنة.. لأن التأكيد والضمان بالجنة ليس لأحد من المخلوقين، بل هو مما اختص اللّه به.. ومن تعدَّ في ذلك فإنما (يتألّى) على اللّه عز وجل..

- هذا الكلام يجب أن يقوله الدعاة كلما ذكروا الأحاديث التي تبشر بالجنة.. حتى لا تأخذ الناس المفهوم الناقص الذي فهمته أنا..

الفلاح!

بعد انتظار عشر سنوات رزقه الله مولوداً ذكراً.. لم يصدق الخبر، لا سيما وأن فحص (السونار) بيّن أكثر من مرة أن المولود أنثى.. اتصلت به زوجته التي أجهشت بالبكاء بعد أن أكدت لها الممرضة الأمر (أنه ولد)..

إلتقيته في المستشفى اليوم التالي.. أمارات الفرح، بل والفخر والزهو.. لم تفارقه بعد..

ـ ما رأيك بـ «فلاح» إسماً لمولودنا الجديد؟

ـ لا أدري، ولكن أظن أن فيه نوعا من «تزكية» وكما نعلم فالرسول صلى الله عليه وسلم غَيّر اسم «برة» لأنه من «البر» تجنبا للتزكية.

ـ «فلاح» من باب رجاء أن يفلح.

ـ هل تعرف الفرق بين «فلح» و«أفلح».

ـ «فلح».. زرع.. من «الفلاحة».. و«الفلاح».. و«أفلح».. فاز ونال ما يريد.. أليس كذلك؟

ـ بلى هو كذلك.. مع شيء من التفصيل. «فلح» بكسر اللام: انشقت شفته السفلى.. و«الفلح» الشق.

ـ نريد «أفلح».. لا نريد «فلح»..

ـ لقد وصف الله أسباب «الفلاح» في كتابه.. ويمكن حصرها فيما يلي:

تقوى الله.. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (آل عمران)..

الجهاد في سبيل الله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (المائدة) .

اجتناب المنكرات ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (المائدة).

كثرة ذكر الله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الأنفال).

التوبة إلى الله ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (النور).

وبالطبع الإيمان والتزكية ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ (المؤمنون)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ (الشمس).

بعضها يتداخل في بعض.. فالإيمان يؤدي إلى التزكية وذكر الله كثيرا والتقوى والتوبة والجهاد في سبيل الله واجتناب المنكرات.

ـ هي كذلك ولكن الله ذكرها بهذا التنوع الذي يؤدي إلى الاجتهاد للتميز بشيء منها.. مع أنها كما قلت مرتبطة ببعضها .

ـ ومن هم المفلحون الذين ذكر اللّه أوصافهم في القرآن؟

كان صاحبي قد وضع أمامنا قطع الحلوى والعصير، فأشار علي أن أتذوق شيئا.. إلتقطت قطعة وتابعت حديثي..

ـ (المفلحون) جاء ذكرهم بأنهم أصناف من البشر.. منهم:

(الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر).

(المتبعون لهدي الرسول صلى اللّه عليه وسلم والنور الذي أنزل معه).

(الطائعون لأوامر اللّه).

(الذين يريدون وجه اللّه).

(لا يبخلون على الآخرين ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ (التغابن)..

ونفى اللّه تبارك وتعالى (الفلاح) عن أصناف من الناس.. منهم:

الظالمون ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾ (القصص).

السحرة ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ (طه).

الكفرة ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ (المؤمنون).

الكذب والافتراء على الله ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (النحل) .

سكت صاحبي وكأنه انشغل بشيء بعيداً عن نقاشنا.

- هل تدري.. لقد غيرت رأيي لن أسميه (فلاح).. بل (عبدالرحمن)..

وأنت راكع.. وساجد

صاحبي يتتبع المواضيع العلمية التي لها علاقة بأحكام الشريعة، مثلا لماذا قال صلى اللّه عليه وسلم «**من شرب الخمر لم تقبل منه صلاة أربعين يوما**» (السلسلة الصحيحة) يقول لأن العلم أثبت أن الكحول يبقى في الدم أربعين يوما قبل أن تتم تصفيته نهائياً!

ويقول لماذا حرم اللّه الخنزير؟ ويأتي بالأسباب العلمية، ولماذا نهى عن الغناء، ويأتي بالأسباب العلمية، ولماذا أمر بغض النظر، وهكذا ومع أنني لا أحب هذا الأسلوب، ولا أتبعه ولا أشجع أحداً أن يتبعه، إلا أنني اضطر إلى الاستماع إلى تعليلاته العلمية.

ـ هل تدري أن الشحنات الكهربائية تتفرغ من الإنسان إذا هو سجد للّه، ولذلك يشعر المرء بارتياح بعد السجود.

ـ كلا لم أكن أعرف هذه المعلومة، ولكن أعلم أن السجود أكثر الحركات فيها خضوع للّه عز وجل، يضع الإنسان أعز ما فيه، وجهه، على الأرض، مستقبلاً الأرض، ويمكّن جبهته وأنفه من الأرض، فهي عبادة عظيمة، جزء من عبادة عظيمة يقول الرسول صلى اللّه عليه وسلم «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء**» (مسلم) وذلك في سجود الصلاة، ولذلك يقول العلماء: «إن من الشرك السجود لغير اللّه».

قاطعني..

ـ تعني أن هيئة السجود هذه لا تكون إلا للّه، ومن سجد لغير اللّه فقد وقع في الشرك؟

ـ نعم.. وأحدنا أعزُّ ما يكون عندما يكون ساجدا، ولذلك رفض بعض الجاهليين وبعض المعاصرين الدّين بسبب عدم قبولهم أن يمرغوا وجوههم في التراب! تكَبراً، وهذا واللّه هو الذنب الذي كفر من أجله إبليس- عليه لعنة اللّه - حين أمره اللّه أن يسجد لآدم فأبى ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ (ص).

ـ ولماذا قال الرسول صلى اللّه عليه وسلم: «**فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فادعوا فيه**» (مسلم).

ـ أنا أنظر إلى أوامر الرسول أنها توقيفية، نحن مأمورون بالسمع والطاعة والاتباع، وإن لم نصل إلى الحكمة، فالمرء لا يجوز له أن يقرأ القرآن في الركوع ولا في السجود، بل (**يسبح باسم ربه العظيم**) في الركوع. و(**يسبح باسم ربه الأعلى**)، ويدعو في السجود، فإذا ركع استحضر عظمة اللّه، وافتقاره لربه عز وجل، فيركع حتى يطمئن راكعا، ثم إذا سجد يبقى على هيئة السجود حتى يطمئن ساجداً، أما الذي لا يتم الركوع أو السجود فإن صلاته باطلة.

ـ هل إذا لم يقل (**سبحان ربي العظيم، أو سبحان ربي الأعلى**) تبطل صلاته!

ـ كلا.. وإنما الفترة الزمنية ، يجب أن يركع ويبقى على هيئة الركوع

فترة زمنية، ويسجد ويبقى على هيئة السجود فترة زمنية، لا ينقر السجود نقر الغراب، ولا يستعجل في الركوع بحيث لا يستوي ظهره فيرتفع مرة ثانية، هذا الاستعجال هو عدم الطمأنينة وهو الذي يبطل الصلاة، وعلى أية حال في الركوع، على منطقك أنت شد لعضلات الظهر، وتمرين للفقرات، وفي السجود تجديد للدورة الدموية مع أنني لا أصدق شيئا من هذا المنطق.

انكسار العبد بين يدي الرب

أعجب من كثرة سكوته ودوام هدوئه وخفض صوته وبطء حركته.. وأحب كل ذلك فيه.. أردت أن اسأله عن سر كل ذلك ولكني كلما هممت ترددت وتراجعت.. إلى أن شاء اللّه أن يجمعني وإياه لوحدنا في رحلة إلى المزارع شمال البلاد، كان الطريق سيستغرق الساعة ونصف الساعة على أقل تقدير.. تولّى هو القيادة ضغط زر المذياع ليسكته مع بداية رحلتنا، تناقشنا في أمور كثيرة، تتعلق بكتب قرأناها أو أحاديث سمعناها.. انتهزت فرصة سكوت، سألته:

ـ صراحة... بودي أن أسألك عن أمر ومنذ زمن ولكن لم أجد الفرصة وترددت مرارا، وخجلت. ولم أسألك؟!

ـ خيراً.. سل ما شئت فها نحن وحدنا.. والطريق طويل.

ـ ما سر هدوئك.. وسكونك..

إلتفت إليّ.. ابتسم بهدوء مع تلك النظرة المعبرة.. المتجاوبة..

ـ سأجيبك.. وأنت أول من أخبره هذا الأمر من أهل المسجد.. أتدري كم عمري الآن؟

ـ بين الأربعين والخمسين.

ـ بل أربع وخمسون سنة، لقد كنت منذ صغري كثير السفر مع أهلي.. رأيت الدنيا كلها.. من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها،

حتى بعد زواجي، وتزوجت وأنا في الثلاثين، كنت كثير السفر لوحدي.. جربت كل شيء.. وأعني بكل شيء.. كل ما يخطر على بالك.. من ذنوب.. ومعاصي.. دخلت جميع الأماكن.. تذوقت كل الأصناف.. ذات ليلة.. وكنت في الأربعين.. وبعد سهرة إلى الثانية فجراً في باريس.. رجعت إلى غرفتي، أصابني ألم في معدتي، تقيأت.. لمدة ساعة.. بتقطع وألم.. شعرت بأن روحي تفارق جسدي.. أردت طلب طبيب الفندق لم أستطع أن أصل إلى الهاتف.. وبعد ساعتين.. من الألم والترجيع.. استلقيت على فراشي.. لنصف ساعة.. قلت.. (يا رب ارحمني.. وارفق بي.. توبة يارب).. وبعد نصف ساعة أخرى قمت فاغتسلت بماء ساخن.. صليت ركعتي الفجر.. ثم نمت.. وعدت في اليوم ذاته إلى أهلي.. ومنذ ذلك اليوم لم تفتني صلاة في مسجد.. ولا صيام.. وكلما تذكرت ذنوبي استغفرت ربي وتبت إليه لهذا لا أكثر الكلام.. لأنني «صاحب سوابق» مع ربي.. ولا أرفع صوتي ولا أقول لأي أحد أي شيء.. إنشغلت بنفسي.. بذنوبي.. أشعر بالحياء تجاه ربي.. قلبي منكسر دائماً.. وهذه حالتي منذ أربع عشرة سنة.

كنت منصتاً.. مصغياً.. حتى انتهى.

- إن الشعور بالانكسار بين يدي الله شعور ينبغي أن يكون عند العبد دائماً.. لأن التذلل لله عبادة عظيمة. والاعتراف بالتقصير خُلق المؤمنين ولذلك من خطر العبادات أن تؤدي إلى الغرور.. فمن اغتر بعبادته حبط عمله.. وانقلبت طاعته معصية.. المؤمن كلما زادت طاعته زاد انكساره.. والله يحب العبد منكسر القلب بين يديه، ولذلك يقول ابن القيم إن الله يستجيب دعوة المظلوم والمسافر والصائم لانكسار في قلوبهم.

ـ صدقت.. هناك انكسار نتيجة الإيمان وكثرة الطاعات والتقوى وهناك انكسار لمرض أو ضعف أو قلة حيلة وهناك انكسار بعد معصية وكثرة ذنوب، وشتان بينها.. ولكن ينبغي للعبد أن يعلم أنه لا حق له على الله وأن المِنّة لله أن هداه والعبد مقصر تجاه ربه مهما عمل.. ورجاؤه أن يقبل طاعاته.. وأنا رجائي أن يتجاوز عن سيّآتي الكثيرة ويمحوها.. ولا يعذبني بها في الدنيا ولا في الآخرة.

الزهد والورع

- كيف يمكن أن أكون من الزاهدين.. مثلاً أقرأ في السيرة أن أبا بكر الصديق تصدق بماله كله وعندما سأله الرسول صلى الله عليه وسلم.. وماذا تركت لأهلك؟ قال: اللهَ ورسولَه.. وهو على يقين أنه لن يصيبهم شيء.. كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى هذه المرحلة؟!

هكذا بدأ عبدالله حديثه معي كعادته عقب الصلاة يمشي معي إلى المنزل ثم يذهب إلى منزله..

- وكيف يخطر ببالك أن تقارن إيمانك بإيمان أبي بكر.. إن أفعال هذا الصحابي الجليل ما هي إلا جزء يسير من إيمانه الذي لو وزن بإيمان الأمة لرجح..

- لا.. ليس قصدي أن أقارن إيماني بإيمان أبي بكر (رضي الله عنه).. ولكن أريد أن أنال هذه الخصال.. الزهد.. الورع.. الإيثار...

- هذه أمور تتأتى بالعلم والعمل... العلم الذي يزيد الإيمان والعمل الذي يصدق الإيمان.. أولاً الزهد.. هو الاستغناء عما لا ينفع في الآخرة.. وقالوا (الزهد في المال).. هو أن يكون المال في جيبك لا في قلبك والتعريف الأول أشمل وأصح.. المؤمن ينبغي أن يحرص على ما ينفعه.. كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**احرص على ما ينفعك**» (مسلم)... ولاسيما ما ينفعك في الآخرة.. متى حرص المرء على ذلك وتوقف عن الحرص على الدنيا دخل باب الزهد...

ـ وماذا عن الورع؟!

ـ الورع هو الابتعاد عما قد يسبب لك العقوبة.. فتترك ما تشك في تحريمه لاحتمال أن تعاقب إذا أنت وقعت فيه فتترك الأمور إذا شككت فيها.. وبالطبع لا تستسلم للوساوس فتترك الحلال البيِّن وتزعم أن ذلك من الورع فقد ذم الرسول صلى الله عليه وسلم.. أولئك النفر الذين تركوا الزواج والفطر والنوم.. فقال أحدهم: «**فأما أنا فأقوم فلا أنام أبداً**»، وقال الآخر: «**وأما أنا فلا أتزوج النساء**» وقال الثالث «**وأنا أصوم فلا أفطر أبداً**». فذمهم الرسول صلى الله عليه وسلم وبين خطأ أفكارهم (أصله متفق عليه).. هذا ليس من الزهد ولا الورع.. الحلال ليس لك أن تحرمه.. والحرام ليس لك أن تقربه.. والورع أن تترك ما تشك فيه..

ـ وكيف أتحقق أنني لا أقع في (الزهد الخطأ).. أو (الورع الخطأ)؟!

ـ ينبغي أن يكون مرادك الرغبة فيما أحبه الله ورسوله والرهبة مما حرمه الله ورسوله.. وذلك وفق ما ثبت في العلم الشرعي الصحيح.

فالعلم الصحيح هو السبيل.. ثم العمل بمقتضى هذا العلم.. أما اتباع الهوى.. حتى في قضية الزهد والورع فإنه يوقع في البدع التي هي أبغض إلى الله من المعصية!!

ـ ماذا تعني؟!

ـ بعض من يظن أنه يسلك طريق (الورع) يترك صلاة الجماعة والجمعة بحجة (فساد الزمان).. وتهمة أولياء الأمر بالفسوق.. وبعضهم

(يحرم) ذبح الحيوانات والطيور ويظن أن ذلك من الورع.. وبعضهم يترك الدعوة إلى اللّه وطلب العلم الشرعي.. زهداً وورعاً.. ويقصر الدين على العبادات... وهكذا يدخل الشيطان إلى قلوب هؤلاء وهم ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ (الكهف) والطريق الصحيح والهدي السليم هو اتباع الرسول صلى اللّه عليه وسلم.. فيما فعل.. وفيما لم يفعل.. فما جاء به هو الأكمل والأمثل.. وسواه ضلال وهوى...

دعاء الناس لك!

صاحبي من الحريصين على مساعدة المحتاجين ماديا .. لم أذكر له حاجة أحد إلا وسارع إلى حلها أو المساهمة الفاعلة لحلها ..

ـ هل تعلم أنك تنال من دعاء الناس لك ما أغبطك عليه؟

ـ الحمد لله.. «**والدال على الخير كفاعله**» (السلسلة الصحيحة).. وإني لأرجو أن ينفعني الله بهذا الدعاء في حياتي وبعد مماتي.. فإن أحدنا لا يدري من أين تأتي النجاة ودفع البلاء..

ـ إنه ليثلج الصدر أن يدعو الناس لك.. وخصوصاً بظهر الغيب.. وإذا كان الدعاء حاضراً ولم يصب المدعو له الغرور فيُرجى أن تكون بُشرى خير عاجل للمؤمن.

ـ الحمد لله.. أحدنا يساهم بما يستطيع ويرجو أن يتقبل الله صدقته وينفعه بها يوم القيامة.. وفي الواقع نحن مقصرون في هذا الجانب.. فإن أحدنا ينفق زكاته التي لا خيار له في إخراجها ـ وشيئا يسيراً جداً من ثروته لا يكاد يذكر.. والصحابة كان أحدهم يتصدق بأحب ما يملك.. وأكثر ما يملك.. وما ينفق أحب إليه مما يمسك.

ـ أولئك الصحابة.. خير القرون.. هل نقارن أنفسنا بهم.. بعض الناس لا ينفق حتى الزكاة الواجبة عليه.. أما الصدقات فلا يعرفها.. إلا إذا نزلت به مصيبة تصدق بدنانير من جملة مئات الألوف التي يكنزها.

ـ المرء إذا أراد أن يفعل الخير.. ينظر إلى من هو خير منه.. وفي أمور الدنيا ينظر إلى من هو دونه (حديث أبي ذر - صحيح الترغيب

والترهيب).. هكذا أمرنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمال فتنة.. وكلما زاد مال الإنسان زاد بخله إلا من رحم ربي.. والناس يدعون لمن يعمل الخير.. فتسمعهم يدعون لمن يؤمّهم في الصلاة.. ويدعون لمن يلقي الدروس والمواعظ.. ويدعون لمن يقرأ القرآن.. ويدعون لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. وهكذا.. أبواب الخير كثيرة.. والناس بفطرتهم يدعون لأهل الخير.. وهذا من فضل اللّه على من يعمل الخير يريد وجه اللّه عز وجل.

ـ إنها لنعمة عظيمة أن ينال الإنسان دعوة الناس له.. وعلى العكس إنها لمأساة أن يدعو الناس على أحدهم..

ـ الناس لا يدعون إلا على من انتشر شره وعم أذاه، فالظَلَمة.. والمفسدون.. والجبارون.. ينالون من دعاء الناس عليهم ما لا يعلمه إلا اللّه.. وإذا كانت الدعوة من مظلوم فإنها مستجابة دون شك كما وعد الرسول صلى اللّه عليه وسلم. (أصله متفق عليه)

ـ وإذا دعا بعضهم على أحد دون وجه حق كما يدعو بعض الطلبة على أستاذهم إذا لم يتمكنوا من الإجابة في الامتحان.

ـ ليست كل دعوة مستجابة وليس كل من زعم أنه مظلوم كان كذلك اللّه أعلم بحقيقة الأمر وأعلم بمن يستحق الإجابة ومن لا يستحق ولكن الرسول صلى اللّه عليه وسلم حذرنا من أن ندعو على أبنائنا أو أموالنا وحذرنا أن ندعو على أنفسنا وأحبابنا.. مهما أصابنا من غضب أو همّ.. فنحن نملك الدعاء.. ولكننا لا نملك الاستجابة.. فليحرص أحدنا أن يكون مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر فربما تناله دعوة صالحة له ولأبنائه وأهله في الدنيا والآخرة.

أعمال صغيرة تُدخِل الجنة

لاشك أن غاية كل مسلم الحياة الآمنة بعد الممات سواء في القبر أو الحشر أو بعد الحساب.. فإن الناس فريقان: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ (الشورى).

- هذا أعلمه ونؤمن به جميعاً.. ولكن هناك أحاديث.. لا أشك في صحتها، ولكن أظن أنني لا أفهمها فهما صحيحا لأنها لا تنسجم مع القواعد العامة التي أعرفها..

- هات مثالاً..

- الأمثلة كثيرة.. سآتيك ببعضها ريثما نستقر في المركبة..

عرض عليّ صاحبي مرافقته لقضاء بعض حاجيات منزله بعد صلاة العشاء .. تابع حديثه بعد أن استقر مسيرنا..

- مثلا قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة كانت في الطريق فأزالها قال: «لأزيلنها كي لا تؤذي المسلمين**».. وفي رواية «**غصن شوك**» (مسلم).. وحديث ذلك **الرجل الذي نزل يشرب من بئر فلما رقي رأى كلبا يلعق الثرى من العطش، فنزل وجلب له ماء بخفه فشكر الله له فغفر له**.. (متفق عليه) والثالث:

قاطعته..

- دعنا نتحدث عن هذين الحديثين.. إن عقيدة السلف «**الجنة أقرب**

إلى أحدكم من شراك نعله والنار كذلك» (البخاري).. وأبواب الخير لا حصر لها، والمؤمن لا يحقر من المعروف شيئاً مهماً صغر في أعين الناس.. فإماطة الأذى عن الطريق من الإيمان.. كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا الرجل أتى بالواجبات وانتهى عن موانع دخول الجنة.. ولما رأى هذه الشجرة تؤذي المسلمين أزالها، يريد وجه الله والأجر، لم يعمل هذا العمل رياءً ولا سمعة ولا ليُصنع له نُصُبا.. وإنما أخلص النية.. وعلم الله منه هذا الإخلاص فقبل عمله هذا.. وكان هذا العمل سبب دخوله الجنة.. لإتيانه بالواجبات وانتهائه عن الموانع.. والرجل الثاني سقى الكلب في صحراء لا يراه فيها أحد.. وإنما أراد الأجر من الله فأخلص النية وعمل هذا العمل فشكر الله له.. وهذا من الإيمان.. وعلى هذا المعنى نفهم الأحاديث التي تذكر أعمالا صغيرة كأسباب لدخول الجنة.. مثل «**من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله» فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**». (مسلم).

فهذا بافتراض قيامه بالواجبات وانتهائه عن الموانع.. وكذلك حديث «**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت**» (صحيح النسائي).. وحديث «**إذا ابتليت عبدي بحبيبته، فصبر عوضته منهما الجنة**» (البخاري).. أي من فقد بصره فصبر.. وأتى بالواجبات وانتهى عن الموانع.. أما من عمي وكان هاجراً للصلاة معرضاً عن الله مقبلاً على الرقص والغناء والخمر.. هذا لا ينطبق عليه هذا الحديث..

ـ هكذا تستقيم المعاني.. ولكن: هل نؤمن بأن الجنة موجودة الآن بدليل الحديث الأول.. «**لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة**».

ـ نعم.. عقيدة السلف أن الجنة مخلوقة موجودة وكذلك النار.. والأدلة على ذلك كثيرة منها.. حديث خلق الجنة وخلق النار.. وحديث اشتكت الجنة واشتكت النار.. وحديث «**إذا مات ابن آدم فتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من ريحها.. أو فتح له باب إلى النار يأتيه من حرها**» (السلسلة الصحيحة).. وهذه عقيدة ثابتة عند السلف وإن أنكرها بعض الفلاسفة وأرباب الكلام.

هذا الرجل من أهل الجنة؟

يشتكي كثيرون من الجو العام يوم الجمعة.. ولا سيما فترة بعد العصر.. يقولون إنه يوم كئيب.. لا يعرفون كيف يقضونه.. أما أنا فيوم الجمعة عيد بالنسبة لي.. منذ الفجر وحتى المبيت.. اليوم الذي أرجو أن يكون بلا معصية.. بل كله طاعات وحسنات وقربات إلى الله تعالى.

هاتفت صاحبي بعد صلاة عصر الجمعة.. بدأنا جولة في المركبة المكيفة بعيدا عن لهيب الشهر السادس.. نستمع إلى إذاعة القرآن.. نتناقش في آخر ما سمعنا أو قرأنا.

ـ تخيل أن تكون في مجلس تُخبر فيه أنه سيدخل عليكم رجل من أهل الجنة!!

ـ لا أدري كيف سأتصرف ولكن بلا شك سأجتهد أن أعرف سر الشهادة له بالجنة..

ـ وهذا ما حصل مع عبد الله بن عمرو بن العاص.. ولكن عموماً كان الصحابة شديدي الحرص على أن ينالوا الجنة.. بالعمل.. والدعاء.. فذلك الصحابي عندما سأله الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطلب منه شيئا.. قال: «**أسألك مرافقتك في الجنة**» (مسلم).. وهكذا ينبغي أن يكون المسلم غايته الجنة.. يؤمن بها يقيناً ويعمل لينالها جاهداً..

ـ وما السبيل الأسلم لتحقيق هذه الغاية؟!

توقفنا عند بائع مشروبات باردة.. تابعنا السير.. والحديث..

- لو تتبع أحدنا آيات القرآن لوجد أن الله يصف أهل الجنة.. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ (المؤمنون) .. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (المعارج)..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ (البلد).. وغيرها من الآيات تصف أخلاق وأعمال ومعتقدات من يستحقون الجنة.. وذلك أن الله يريدنا أن نجتهد وأن نكون ضمن هؤلاء إذا كنا نريد أن نكون من أهل الجنة.. هذا صنف من أهل الجنة..

وصنف آخر شهد لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم من أهل الجنة بأعيانهم..

- هل تقصد العشرة المبشرين بالجنة؟!

- العشرة المبشرون بالجنة فريق من هؤلاء.. وفي الواقع الذين شهد الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بالجنة أكثر من العشرة بكثير.. وهؤلاء نشهد بأنهم من أهل الجنة بأعيانهم.. ولنبدأ بالعشرة المشهورين.. وهم.. أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح.. أما غيرهم فأبو الدحداح وأبو ذر وأنس بن مالك وبلال بن رباح ورافع بن خديج.. وتستمر القائمة لتشمل أكثر من مائة وخمسين رجلاً وامرأة بأعيانهم.. ثم عموم أهل بدر.. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم.. «**وما يدريك أن الله اطلع على قلوب أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟**» (متفق

عليه).. ثم أصحاب بيعة العقبة وأهل بيعة الرضوان.. وهؤلاء جميعاً نعلم يقيناً أنهم من أهل الجنة..

ـ وهل نؤمن بأن هؤلاء لم يقع منهم ذنب أو كبيرة؟!

ـ كلا.. بل وقع من بعضهم شيء من الكبائر.. ولكن إما أنهم تابوا فتاب الله عليهم أو جاءوا بأعمال صالحة أعظم من كبائرهم.. ومع ذلك فهؤلاء جميعاً ليسوا في مكان واحد في الجنة.. فإنها جنان.. بعض الناس في ربضها وبعضهم في وسطها وبعضهم في أعلاها.. وقمة الجنة الفردوس الذي سقفه عرش الرحمن.. فهي درجات.. ولكلٍّ درجة حسب ما يستحق.. ولكن أقلّ أهل الجنة في نعيم أفضل من أكثر أهل الأرض نعيماً.. بل له مثل عشرة أمثال الدنيا.. ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. وليس في الدنيا من الجنة إلا الأسماء.. فخمرها غير خمرها ورمّانها غير رمّانها.. ونساؤها غير نسائها.. ولبنها وماؤها وظلها وثمرها ولحمها وطيرها..إنها الجزاء الذي أعده الله لمن يستحق من عباده.

هل بنيت منزلك؟

ـ نؤمن يقينا بأن لكل منّا منزلاً في الآخرة.. والمآل منزل في النار ـ والعياذ بالله ـ أومنزل في الجنة ولا شيء وسطاً.

ـ هل من عقيدتنا حقاً الإيمان بذلك؟

ـ نعم.. لقد جاء وصف بعض بيوت الجنة، هناك منازل من لؤلؤ... كالمنزل الذي بشّر به الرسول صلى الله عليه وسلم زوجته خديجة رضي الله عنها عن طريق جبريل عليه السلام، «**بيت من قصب لا تعب فيه ولا نصب**» (متفق عليه).. وهناك بيوت من طوب.. طوبة من ذهب وطوبة من فضة.. وهناك قصور.. كالقصر الذي بشّر به الرسول صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه... وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**فوالله إن أحدهم لأهدى إلى منزله في الجنة من منزله في الدنيا**» (البخاري).

كنت وصاحبي نتمشى بعد صلاة التراويح.. المكان هادئ.. والجو يميل إلى البرودة.. مع نسمات رطبة.

ـ وهل يعمل الإنسان ـ أعني ـ هل يحتسب أنه يعمل الأعمال الصالحة ليبني بيتاً في الجنة؟

ـ فضل الله أعظم مما يتصور الإنسان.. ومن دوافع العمل الصالح أن يعمل الإنسان بنّية أن يبني بيتاً في الجنة كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم «**من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتا في الجنة**» (صحيح الترغيب والترهيب)، وفي الحديث الآخر «**من صلى اثنتي عشرة ركعة دون الفريضة**

فكأنما يبني بيتا في الجنة» (مسلم) . وهكذا يحرص الإنسان أن يعمل شيئا يجده في الآخرة.. دار المقام.. والنزل الحقيقي .. الذي لا ترحال عنه.

ـ وماذا أيضا عن الأعمال التي تورث بيتاً في الجنة؟!

ـ إسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم «.. **إني زعيم ببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا إني زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا»** (السلسلة الصحيحة) هذه أخلاق إذا اتصف بها العبد المؤمن يرجى له أن ينال هذه البشارة من الرسول صلى الله عليه وسلم إن لم يرتكب مانعاً يمنع تحقق هذه البشارة.

ـ أن الأمر ليسير إذن؟!

ـ هو يسير على من يسره الله له، فمن أخلص النية لله وعمل وفق سنة رسول الله فإنه ناج بإذن الله ويستحق منزلاً في الجنة، كما قال صلى الله عليه وسلم «**كلكم يدخل الجنة إلا من أَبى. قيل ومن يأبى يا رسول الله**»؟ **قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»** (متفق عليه). ومن دخل الجنة، نال منزلاً فيها. فليس هناك نقص في الأراضي أو قصور في الميزانيات ولا في الأيدي العاملة.. منازل.. معدة ومجهزة بكل ما يحتاج إليه الإنسان مما لا يخطر على باله.. أرائك.. حدائق.. مشروبات.. مأكولات .. غلمان... حور.. لا تعب ولا نصب.. كل ما تشتهيه النفس.. ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ (النبأ).. وأحدنا يرهق نفسه على منزل زائل في الدنيا ويضيع وقته وماله، ولا يعمل نصف ذلك للمنزل الدائم في الآخرة.

والله لا يؤمن!

يزعجني أولئك الذين يتبعون «المنطق» في الوصول إلى الأحكام الشرعية.. ولاسيما إذا كان الموضوع يتعلق بالعقيدة.. صاحبي في العمل من هذه الفئة!!

ـ كيف تزعم أن صاحب المعصية لا يكّفر والرسول صلى الله عليه وسلم قال عمن يسيء إلى جاره: «**والله لا يؤمن.. والله لا يؤمن.. والله لا يؤمن...**» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من لا يَأْمن جاره بوائقَه**» (مسلم).

ـ هل تعني أن الذي يؤذي جاره يكفر؟

قلتها بتحدّ وإصرار...

ـ أنا لم أقل ذلك.. ولكن هذا هو مفهوم الحديث؟

ـ بل هذا فهمك أنت للحديث.. ولقد ذكرت لك قبل هذا أن الأحاديث، ولا سيما تلك التي تتحدث عن الإيمان والكفر لا يمكن أن نفهمها كما نشاء... في العقيدة تمسك بالثوابت حتى لا تقع في خطأ.

ـ ذكّرني بالثوابت.. مرة ثانية.

ـ من الثوابت.. أن المسلم لا يكفر بالمعصية، ولا يُخرَج المسلم من الملة، ويُحكمَ عليه بالردة إلا بما يناقض الإيمان.. وهي عشرة أمور.

ـ وكيف نفهم هذا الحديث؟

ـ نفهمه كما نفهم حديث «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» (متفق عليه)، وحديث «**لا يدخل الجنة عاق**» (مسلم)، وحديث «**لا يدخل الجنة نمّام**» (مسلم)، وحديث «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» (مسلم)، وحديث «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**» (متفق عليه).. وكل هذه الأحاديث التي تنفي الإيمان أو تنفي دخول الجنة نتيجة ذنب أو معصية... فإنها لا تعني أنه كفر ولا تعني أنه خالد في النار مع الكفار والمشركين والمنافقين، نفهم المعنى دون أن نتجاوز هذه الثوابت...

سكت صاحبي طالباً مزيد إيضاح...

ـ هذه الأحاديث تعني نفي كمال الإيمان لا نفي أصل الإيمان.. بمعنى أن المؤمن الذي يرضى الله عنه والمؤمن الذي يريده الله هو المؤمن الذي يكرم ضيفه ويحسن إلى جاره، وغير ذلك من الأخلاق التي جاءت في الأحاديث، أما الذي يتصف بضد هذه الأخلاق، فإنه لا يستحق صفة المؤمن على الإطلاق، وإنما ينقص إيمانه بقدر معصيته وذنبه، وربما يعذب في النار نتيجة هذا الذنب، وربما يغفر الله له وربما تغلُبُ حسناته سيئاته فلا يُعَذب، فهذه حالات ثلاث لصاحب المعصية.. مهما كانت المعصية إلا أن تكون الشرك بالله.

ـ ولكن أحدنا إذا قرأ حديث تحريم الحرير «**من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**» (مسلم)، يفهم أنه يدخل النار.. ولا يدخل الجنة...

ـ هذا فهم قاصر.. وغير صحيح.. إن فهم الأحاديث، ولاسيما في

باب العقيدة يجب أن يأخذ الأحاديث كلها.. ويجمع بينها.. ويطلع على أقوال العلماء فيها، وإلا فإنه يقع في شبهات ربما تؤدي إلى ضلاله وبعده عن العقيدة الصحيحة، واعلم أن بعض المسلمين سيعذب في النار.. وربما يعذب جزء من بدن المسلم دون جزء.. مثلا.. قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**ويل للأعقاب من النار**» (متفق عليه).. فإن أعقاب الأقدام التي لا تغسل في الوضوء قد تمسها النار يوم القيامة، وإن كان صاحبها من المصلين.. إن لم يغفر الله له.. أو يتجاوز عنه لحسناته.. ثم بعد أن ينال جزاءه يدخل الجنة.. فليس كل من يدخل النار كافراً.. ولكن لا يخلد في النار إلا الكافر المشرك والمنافق نفاقاً قلبياً.. وهو أشد الناس عذابا في النار ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ (النساء).

- ماذا تعني بالنفاق القلبي؟ أليس النفاق واحدا؟

- هذا نتحدث عنه بعد الصلاة إن شاء الله تعالى.

الظالم ينسى.. والمظلوم؟

بلغ السبعين.. جمع ثروة جعلته في مصاف المعروفين في السوق.. جمعنا مجلس فيه أصدقاء والدي.. سمعت طرفا من حديثه مع الذي بجانبه.

- لقد اشتريت بيتا في مكة. وأود أن أقضي أوقاتا أطول بجوار الكعبة، فقد كبر الأولاد.. وأمهم توفيت منذ سبع سنين وأشعر أنه ينبغي علي الاستعداد للرحيل.

لم يجامله صاحبه..

- أنت يا بوفهد؟ إني لا أصدق ما أسمع.

- ولِمَ لا.. كل واحد منا يخطئ في فترة من حياته ولكن الحمد للّه.. ربنا يقبل التوبة ويغفر الذنب ويقبل عباده مهما كانوا..

- هذا صحيح.. ولكن بوفهد، لقد ظلمت أُناساً كثيرين.. أخذت أموالاً لا حق لك بها.. وعقارات لا تملكها.. وسجنت بعضهم.. وشتت بعضهم.. الكل يتحدث عنك بأنك «سيف لا ترحم».

- ذاك كان منذ زمن بعيد، ولكن الآن أحدنا يجب أن يتوب.. ثم أنا لا أذكر أنني تسببت في دخول أحد السجن.. أو ظلمت أحداً.

- طبعاً.. أحدنا لا يذكر ظُلمه للآخرين.. ولكن المظلوم لا ينسى والديّان لا يغفل.. هل نسيت المسكينة أم أحمد وأبناءها اليتامى.. عندما

توفي والدهم وكان قد تداين منك طردتهم من البيت لأنه رهنه عندك ثم تصرفت بالبيت وأخذت أكثر من حقك ولم ترجع لهم الزيادة.

ـ لقد أخطأ أبوهم.. والذنب ذنبه وليس ذنبي.. وأخذت حقي بالقانون.

ـ إن القانون الدنيوي ربما يعطي الإنسان ما ليس من حقه.. وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**فمن قضيت له من حق أخيه فإنما أقتطع له جمرة من النار فليأخذها أو ليدعها**» (مسلم).. إن حكم القضاء لا يبرر أخذ الحقوق يا بوفهد.. وأنت نسيت الموضوع تماما!

ـ لا تذكرني بتلك الأيام.. فقد مضت ثلاثون سنة.

ـ وماذا عن بوزيد.. صاحب الدكان الذي أجبرته على بيع دكانه بثمن بخس مقابل الدراهم التي استدانها منك.

ـ وذلك أيضا أخذت حقي منه بالقانون.

ـ اسمع لي جيداً يا بوفهد.. ربما يخطئ أحدنا.. والرجوع إلى الحق فضيلة، ولكن ظلم الناس صعب، المظلوم دعوته مستجابة.. وحقه محفوظ عند رب العالمين.. مهما حصل من الظالم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ (المجادلة).. كل شيء مسطر في كتاب لا يزيد ولا ينقص، وخيرٌ للإنسان إن أراد التوبة أن يبحث عمن ظلمهم.. ويرجع لهم حقوقهم، أو لورثتهم، ويستسمح منهم.. هذا خير من مجاورة الكعبة.

ـ ولكن أين أجد أصحاب الحقوق أو ورثتهم؟

ـ أنت عليك إخلاص النية في إرجاع الحقوق وبذل الجهد للوصول إليهم.. والوسائل هذه الأيام سهلة، إعلان صغير في الصحف اليومية يأتيك كل من على وجه الأرض ممن أعلنت لأجلهم.. وأرجع لهؤلاء الناس حقوقهم واسترضهم وزدهم حتى يدعوا لك.. بعد أن كانوا يدعون عليك.. وإذا صدقت الله فسوف يصدقك الله.. ثم بعد أن تؤدي كل الحقوق.. ولو تطلَّبَ ذلك منك عاماً كاملاً.. إذهب وجاور الكعبة.. إن بقي لك من مالك شيء.

عمر الإنسان

لم تتمكن ابنتي من مصاحبة زوجها في رحلة العمرة لأسباب صحية.. قررت قضاء فترة غياب زوجها لدينا في المنزل.. على مائدة الإفطار.. وكانت تنتظر مكالمة من زوجها.

ـ لا أظن أنه سيتمكن من مهاتفتك قبل الحادية عشرة ليلاً.. أي بعد انتهاء صلاة التراويح في الحرم ووصوله إلى الغرفة.

ـ لقد أخبرني أنه سيتصل ساعة الإفطار.

ـ على أية حال.. إنه هناك مشغول بأداء مناسك العمرة.. والصلاة في المسجد الحرام.. لعلنا نستطيع أن نراه في التلفاز أثناء نقل صلاة التراويح.. قالت مستنكرة..

ـ من بين كل هذه الجموع.. لا أظن.. هل صحيح أن الصلاة في الحرم تعدل مئة ألف صلاة..

ـ نعم.. الحديث ثابت في ذلك.. وهذا من فضل الله والأجر أعظم في رمضان..

ـ إذن إذا بقي أحدنا يومين في الحرم وأدى الفرائض الخمس في كل يوم فإن ذلك يعدل!! يعدل كم؟!

ـ يعدل خمسمئة وخمسين سنة تقريبا.

ـ وليلة القدر؟!

ـ ثلاث وثمانون سنة.

قامت بعملية حسابية..

ـ إذن إذا ذهب أحدنا إلى العمرة مرة واحدة في العام ومكث يومين في الحرم. وإذا قام العشر الأواخر من رمضان من كل عام في حياته.. فإن كل سنة من عمره تعدل أكثر من ستمائة سنة.. فإذا قام بهذا العمل لمدة عشر سنوات فقط من عمره فإن له أجر من عمل ستة آلاف سنة!!

ـ إن فضل الله أعظم من ذلك.. نعم.. نؤمن يقينا أن المؤمن إذا قام بهذه الطاعات فإن له من الأجر كمن عاش آلاف السنين يعمل الصالحات.

وذلك لفضل هذه الأزمنة والأمكنة.. وهذا خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فالمؤمن يعلم يقينا أن العمر يمضي.. ولكن يسعى إلى استغلال هذا العمر القصير بحيث يصبح مردوده كأنه عاش آلاف السنين.

تدخلت (براء).. بطريقتها «الفرضية»..

ـ وإذا عاش الإنسان بداية حياته.. لا يصلي.. ولا يعرف شيئا عن الدين ولم يلتزم بشيء من الطاعات.. ثم التزم في آخر خمس سنوات من حياته؟! ما مصير عمره الأول..

ـ لنفرض أنه في البداية كان كافراً.. (أسوأ الاحتمالات).. ثم تاب توبة نصوحاً.. فإن سنوات الكفر ذهبت هباء ويبدأ عمره من لحظة

توبته ويستطيع خلال خمس سنوات أن يعمل من الطاعات ما يعوضه عما فاته من السنين.. فيجعل كل سنة من هذه السنوات كآلاف السنين من الطاعة.. فلا يضيع ليالي رمضان.. ويتحرى ليلة القدر.. ولا يضيع الصلاة في المسجد الحرام.. ولا يضيع صيام ثلاثة أيام من كل شهر مثلا.. لو صام هذه الأيام الثلاثة من كل شهر فله أجر صيام العام كله، أي اثني عشر شهراً.. عدا صيام رمضان.. وإذا أنفق شيئا وجده كجبل أحد في الأجر.. وإذا اتبع جنازة.. أخذ قيراطاً من الأجر.. وإذا انتظر دفنها.. نال قيراطاً آخر «**كل قيراط كجبل أحد**» (البخاري ومسلم).. وهكذا يقاس عمر المؤمن.. بما يعمل من الصالحات لا بعدد الأيام التي عاشها فحسب.

الأيام.. (تركض)!

يغيظني الشخص الذي لا يلتزم بالمواعيد.. ولا تخفف أعذاره شيئا من هذا الشعور.. لأن غالب الأحيان السبب لا يتعدى (إهمال)..

ـ لقد خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام.. لمَ الإصرار دائما على إنجاز كل شيء (بسرعة).. ووفق جدول.. هل تعيش بالكمبيوتر و(الريموت كونترول).

ـ المسألة ليست مسألة كمبيوتر ولا (ريموت كونترول).. إن أحدنا إذا أراد أن ينجز شيئاً لابد أن يأخذ الأمر بجد.. وتسجيل الأمور المراد إنجازها إحدى وسائل استغلال الوقت.. لا أكثر ولا أقل.. وأما الاعتذار بأن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام.. فإنني بصراحة لا أعرف موطن الاستدلال بهذه الحقيقة..

ـ موطن الاستدلال.. إن الله خلق السماوات والأرض في ستة إيام وهو قادر على أن يخلق كل شيء بـ(كن).. ولكن ليعطي الإنسان العبرة بأن الأمور تُؤخذ بهدوء وروية وتُـنجز على مهل..

كنت ألوم صاحبي على عدم رده على الهاتف الساعة الثامنة صباحا حسب الموعد الذي اتفقنا عليه.. واعتذر بأنه غلبه النوم وأن ابنته (دودي) ذات الخمس سنوات ضغطت (زر الإقفال) فلم يسمع الهاتف..

ـ هل تعلم أن الوقت هو الحياة.. هو الوعاء الذي نملأه بالأعمال.. فالذي يضيع الوقت.. أو الذي يقتل الوقت.. إنما يقتل نفسه.. ويضيع أثمن ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان.. فرصة للنجاة من النار..

في الآخرة لا يتحسر الناس (حتى أهل الجنة) على شيء تحسرهم على لحظة مرت دون ذكر الله عز وجل..

كنا في طريقنا إلى (قصر العدل) للقاء ثالث.. كنا على موعد معه تمام التاسعة.. تابعت حديثي مع صاحبي..

- هل تدري أن أحدنا لو فكر في الوقت لوجده بالفعل أثمن شيء..

اليوم.. مخلوق.. وكل يوم مخلوق جديد وعلى عملك شهيد وإذا ذهب اليوم لا يرجع أبداً.. وهكذا ينبغي أن ننظر إلى الأيام أنها مخلوقات جديدة تشهد لنا أو علينا يوم القيامة.. فالسبت ليس كالأحد.. والأحد من هذا الأسبوع ليس كالأحد من الأسبوع الماضي أو القادم.. أعطاني (حسام) نظرة استغراب وكأنني من كوكب آخر..

- يا أخي (إشمعنى) أنت تعيش بهذه الطريقة؟.. الناس كلها لا تفكر بهذا المنطق (الغريب) الذي تفكر فيه..

- أنا أنقل لك أحاديث وآيات.. لا أفكاراً واجتهادات.. والعاقل من يستغل هذا الوقت الذي يعيشه فيما يعود عليه بالنفع في الدنيا أو الآخرة.. أما (كثرة النوم) و(اللامبالاة بالمواعيد) و(الأمر الذي لا ينجز اليوم ينجز غدا) هذه العقلية لا يمكن أن يقبلها إنسان يعلم أنه مقبل على يوم فيه حساب وميزان وسؤال.. «**عن عمره فيما أفناه**» (السلسلة الصحيحة).. والعمر هو هذه الدقائق والساعات.. ثم اعلم أنه من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أخبرنا عن (تقارب الوقت) في آخر الزمان كعلامة من علامات الساعة.. وهذا تراه واضحا.. تصحو

وينتهي اليوم وتستلقي على فراشك في الليل وكأنك صحوت للتو.. فإذا آمنا بقرب الساعة ألا ينبغي أن نعمل لها..

صاحبي لم يزل في (خمول) النوم..

ـ هلا جلسنا في أي مكان لأشرب قهوة الصباح وأدخن سيجارة..

ـ وموعدنا؟ ليس أمامنا إلا خمس دقائق..

ـ لا عليك.. أنا أعرف (أحمد) منذ عشر سنين ولن يأتيك قبل العاشرة!!

ـ أفضل أن أذهب إلى حيث تواعدنا وأنتظر خمس دقائق وإن لم يأت نغادر المكان..

فعلنا ما أردت.. لم يأت صاحبنا.. غادرنا لتناول القهوة.. رن الهاتف الساعة العاشرة إلا ربعا.. (أحمد)..

ـ أنا في طريقي إليكما وسأصل بعد خمس دقائق!!

عندما يشيخ الإنسان

اضطررت للسفر منفردا.. حاورني في الطائرة رجل أجنبي.. قدّرت أنه في العقد السادس من عمره.. تفاديت الحديث معه.. ولكنه أبى إلا أن يصعب الأمر علي فاستسلمت.

- قضيت في الكويت عشرين عاما.

- وكيف استطعت قضاء كل هذه الفترة في الكويت رغم الجو القاسي والحياة «المقيدة» بالنسبة للأجانب؟

- في الواقع كان الأمر صعباً في الأشهر الأولى.. ولكن مع مرور الوقت تأقلمت مع الوضع ولاسيما أنني كبير في السن - نوعاً ما - ولست مولعاً بالخمر.. وليس لدي سوى زوجتي التي تكبرني بسنتين.. ثم بصراحة.. المردود المادي كان يسهل أمر البقاء.. ففي هذه السنوات العشرين جمعت ثروة ممتازة والآن أنا عازم على التقاعد لأتمتع ببقية عمري..

- ماذا تنوي؟!

- أظن أنني سأبيع البيت الصغير في الريف وأحول كل أملاكي إلى جنوب فرنسا أو إسبانيا.. حيث سأشتري بيتا أو شقة على ساحل البحر المتوسط وأضع بقية أموالي في البنك فلدي ما يكفي لخمسين سنة أخرى!

قالها وهو يضحك.. لا أدري فرحاً.. أم تفاخراً.. لم أهتم..

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم حياة هادئة.. في جو معتدل.. دون هموم.. ولا تعب.. أتمتع ببقية عمري وزوجتي العجوز.. وسوف أوصي بما يبقى من أموالي لزوجتي وإذا ماتت قبلي أوصي بها لمساعدة جهود مكافحة «الإيدز».

ـ لماذا هذه الوصية؟

ـ فقدت ابني الوحيد بسبب هذا المرض.. منذ عشرين سنة وبعدها قررت الذهاب إلى الكويت.. وكان قرارا صائبا..

حمدت الله على نعمة الهداية والنور الذي وهبنا إياه.. لثوان سرحت عن جاري.. بعيداً.. أحدنا يفكر بأن يصلح أمره مع الله إذا بلغ ما بعد الخمسين.. يفكر أن يستعد لمغادرة هذه الحياة وقد أدى حقوق الناس عليه.. فيحسن إلى من أساء إليهم.. ويصفح عمن أساءوا إليه ويؤدي حقوق من لهم شيء عليه.. وربما قضى وقتا أطول في العبادات وأعمال الخير والدعوة إلى الله ومع كتاب الله.. وإن كان مقتدراً استأجر مكاناً دائماً في جوار بيت الله.

قطع تفكيري إصبع صاحبي في عضدي ينبهني إلى المضيف الذي كان يسأل عما نرغب من مشروبات..

سألني..

ـ وأنت ما الذي تنوي عمله بعد أن تتقاعد؟!

ـ في الواقع لم أفكر بالتقاعد إلى الآن.. وربما يجب أن أبدأ بالإعداد لما بعد التقاعد.. ولكن أسأل الله ألا أبلغ أرذل العمر.. تلك المرحلة التي يرجع فيها الإنسان لا يعلم بعد علم شيئا.. يصبح عالة على غيره حتى في أخص أموره وحاجاته الفطرية.. فيتأذى ويؤذي الآخرين..

ـ هذه نظرة تشاؤمية.. حافظ على صحتك.. راقب ما تأكل وعوّد نفسك على شيء من الرياضة اليومية كالمشي مثلا.. ولن يحصل لك هذا العجز الذي تتحدث عنه.

ـ ربما.. ولكن يبقى أحدنا يستعيذ من أرذل العمر.. فأكثر الناس حرصا لم ينفعه حرصه عندما داهمه المرض.. وأقعدته الشيخوخة.. على أية حال آمل أن أنتقل من هذه الحياة وأنا أعيش بقوتي الذاتية دون الاستعانة بأحد من البشر وأن أتمكن من أداء واجباتي جميعها قبل أن أغادر هذه الحياة.

.. ولم يفق صاحبي من الغيبوبة

اشتكى صاحبي من «الانفلونزا» مع سعال غير طبيعي.. توجه إلى مستوصف المنطقة، حيث الطبيب زميل لنا .. أحاله إلى المستشفى لإجراء فحوصات وأشعة وتحاليل وسط استغراب صاحبي.. سألته عن سبب الإحالة إلى المستشفى أجابني: «ليطمئن قلبي».. ذهب صاحبي إلى المستشفى مُصراً ألا أصحبه.. لبيّت رغبته.. هاتفني في المساء أعلمني أنهم أبقوه عندهم! زاد استغرابي.. ذهبت إلى المستشفى، سألت ابنتي التي تعمل هناك عن حالة صاحبي أجابت «نشتبه بحالة سرطان».. صعقت من هول المفاجأة، ولم يكن صاحبي يعلم بعد.. زرته.. كان في حالة «طبيعية جدا» حادثته أسلّيه لنصف ساعة تقريبا، غادرت عندما وصل أهله.

شغلتني حالته، دعوت له ما استطعت تلك الليلة، زرته في اليوم التالي.. بعد السلام والسؤال، وكان قد علم بأمر احتمال مرضه بالسرطان.

ـ أشعر أنني لم أفعل شيئا في حياتي.. نعم لقد أنشأت شركة ناجحة، وحرصت على تعليم أبنائي في أفضل المدارس الخاصة، وأموالي في ازدياد حتى أنني لم أعجز يوما عن شراء أي شيء أريده أو تريده زوجتي.. ولكنني لم أقدم شيئا لحياتي.

ـ ماذا تعني؟! ولماذا هذا التفكير المتشائم؟

ـ إنه تفكير واقعي.. وليس متشائما.. ها أنا أذهب إلى المستوصف

لأعالج من «الانفلونزا» وينتهي بي اليوم في المستشفى، وقد انتشر السرطان في رئتي.. مع أنني لم أدخن سيجارة واحدة طوال حياتي.. على أية حال طلبت من الأطباء أن أغادر المستشفى لأسافر إلى لندن في أسرع وقت.. ربما غدا أو بعد غد.. ريثما تنتهي الإجراءات المطلوبة هنا وهناك، ولكن أشعر بصدق أنني ضيعت جهدي ووقتي فيما لا ينفعني.. ثروتي ستذهب إلى ورثتي..

قاطعته..

- كف عن هذا التفكير المتشائم.. هنا أنت في أحسن حال، في قوتك ووعيك، وسوف تغادر المستشفى على خير، ولن تسافر إلى لندن إلا لتأكيد عدم وجود أي مرض، دع عنك هذا التفكير.

- لا شأن لي بما تقول.. لأنني أعرف الحقيقة، أعرف أنني انشغلت بمالي.. وعملي.. وكلما حدثت نفسي أنني يجب ألا أنغمس تماما في العمل الدنيوي، ظهرت لي فرصة جديدة، وأغراني مشروع ناجح، وهكذا، حتى نسيت نفسي، مرت عليّ فترات أنسى فيها صلاة الظهر والعصر، ولا أنتبه إلا وقد حان موعد المغرب، وكلما لاحت فرصة ذهبية «كما كنت أصفها لزوجتي»، سافرت إليها، تجدني يوماً في اليابان وفي اليوم التالي في أمريكا، واللّه لو قيل لي افعل ذلك في الدعوة إلى اللّه ما فعلت، فماذا سأجيب ربي غدا.. ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ (الفتح:١١).

كان حديثه غير موجه لأحد، كأنما يحدث نفسه.. لا ينظر إليّ إلا نادراً، لم أدر كيف أرد، حاولت أن أبعد عنه أو أبعده عن هذا الموضوع،

ولكنني فشلت في كل محاولاتي، وهو يتحدث ويكرر.. شغلتنا أموالنا وأهلونا.

في اليوم التالي كنا في المطار لنودعه، في غرفة الانتظار، أغمي عليه، أسرع الطبيب بنقله إلى المستشفى، دخل في غيبوبة، سألت الطبيب عن حاله، أخبرني أنه «إن لم يفق من غيبوبته خلال ٧٢ ساعة فسيتوفى، وإن أفاق فاحتمال شفائه قائم» مرت ثلاثة أيام ولم يفق صاحبي!

والأثرياء جداً.. يدفنون تحت التراب!

اعتدت وصاحبي أن نزور المقبرة بين فينة وأخرى.. وأغلب زياراتنا تكون أيام الاثنين بعد صلاة العصر.. قبل أسبوعين قررنا الذهاب يوم الثلاثاء.. أدينا الصلاة في مسجد قبل وصولنا للمقبرة.. أتينا المقبرة فإذا المركبات مزدحمة إلى خارج البوابات.. تحركنا ببطء شديد، فقررنا العودة وعدم الدخول.. سألت عن المتوفى.. فعلمت أنه من أكبر أثرياء البلد.. في اليوم التالي ذهبنا إلى المقبرة.. أدينا الصلاة.. اتبعنا جنازتين.. صلينا.. انتظرنا دفنهما نرجو الثواب.. كانت إحدى الجنازتين لوافد عربي.. والأخرى لمواطن لم يتجاوز معزّوه الخمسين.. انتهى الدفن.. ذهب الأهل إلى مكان تقبل العزاء..

اتبعت القبور إلى قبر ذلك الثري الذي دفن بالأمس.. وقفت عند قبره.. تأملت القبر الذي قبله والذي بعده.. دعوت لجميع موتى المسلمين.. كان صاحبي بانتظاري في المركبة.

- أراك ذهبت تزور قبر الذي دفن بالأمس!!

- خطر على بالي أن أرى من الذي دفن بجانب ذلك الثري جدا..

أتدري.. قبله دفنت امرأة لا تحمل اسم عائلة.. وبعده دفن رجل آسيوي اسمه «نور الإسلام».. سبحان الله.. الإنسان لا يعتبر ولا يتعظ.. مادام في شغل الدنيا.. ولذلك حثنا الرسول صلى الله عليه وسلم على زيارة القبور.. الجميع سيموت.. والجميع سيدفن.. حفرة ذات قياس

واحد.. للجميع.. ثم يهال التراب.. ذات التراب على الجميع.. ويمر بالتجربة نفسها الخلق جميعهم.. الغني والفقير.. الثري جدا.. والمعدم.. وبين القبرين نصف متر.. وهذا بحال لا علاقة لها بحاله في الدنيا.. بل كل حسب عمله.

- ما الجديد في ذلك يا صاحبي؟!

- لا جديد إلا العبرة والموعظة.. لو يتفكر الإنسان.... هذا كان يملك الملايين.. والجميع يحسب له ألف حساب.. وهذا كان يعمل ليل نهار ليرسل أربعين دينارا نهاية الشهر إلى عائلته.. وكلاهما يدفن تحت الأرض ويهال عليه التراب.. ويذوق ضمة القبر.. ويأتي الملَكان فيسألان هذا كما يسألان ذاك.. ويحاسَبان.. وينعّمان.. أو يعذَّبان.. ترى كم سنة استمتع هذا الثري بماله؟ ستين سنة.. وكم سنة شقي هذا المعدم بسبب فقره؟ عشرين سنة.. لا قيمة لهذه السنوات أمام الحياة البرزخية التي يمرون بها الآن حتى تقوم الساعة، ثم ما قيمة كل ذلك أمام الحياة الأبدية في الآخرة؟!

- وهل تتوقع أن يترك الناس نعيم الدنيا لأجل ذلك؟!

- كلا.. فكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتم قليلا**» (متفق عليه)، ولكن لا ينبغي أن يكون الهم الأكبر للمرء جمع الثروة.. وبلوغ المليون مثلا.. لأن هذا الهم لا ينتهي ولا ينفع.. فقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم حال هذا الإنسان فقال: «**لو كان لابن آدم واد من ذهب أحب أن له وادياً آخر**» (مسلم)، فالغاية

الأولى.. مئة ألف.. ثم المليون.. وبعدها المليون الثاني.. (ولا يملأ فاه إلا التراب).. يموت أصحاب الملايين، فيدفنون في الأرض تحت التراب.. لا قبور من الديباج.. ولا رمل من الريش.. ولا حفرة أكبر من مترين.. وحتى لو طلبوا ذلك وأعد لهم ما أوصوا به.. فإنهم لن ينعموا به.. ولن يشعروا به.. تراب الأرض يغطيهم.. وظلمة القبر تلفهم.. وضيق الحفرة يضمهم.. ولا ينفع إلا العمل الصالح.. حقاً.. الغني من إدّخر للآخرة.. والفقير من قل زاده في رحلة الآخرة.

لا تستسلم للهموم

هذا همه ابنه الذي أصابه المرض العضال، يراه يموت ببطء أمام عينيه، وذاك همه الحكم القضائي الذي عجز عن أدائه.. وثالث همه والده الذي أقعده المرض والهرم.. ولا أحد يتحمل مسؤوليته سواه.. ورابع همه ابنه العاق حيث صاحب فئة سيئة فأصبح سراباً.. يعرفه ولا يراه وفي كل لحظة يتوقع نبأ موته أو سجنه!

ـ وهل يخلو أحد من الهموم في هذه الدنيا، ألم يقل الله عز وجل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾؟ (البلد).

ـ هذه دار ابتلاء واختبار ولا بد فيها من الهمِّ والغمِّ، ولكن مواقف الناس تتفاوت، فرغم أننا لا نملك دفع الهموم إلا أننا مطالبون بالتعامل الصحيح معها، وهنا يتميز المؤمنون عن غيرهم بل يتميز المؤمنون فيما بينهم.

قاطعني، كأنه يريد أن يغير موضوع الحديث..

ـ ولكن ما معنى قوله عز وجل ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ومن وجد في دينه شدة زيد له في البلاء**» (السلسلة الصحيحة).

ـ هل تبدو لك هذه الآية والأحاديث متعارضة؟

ـ كلا.. ولكن لا أظنني أفهم المراد الصحيح منها.

ـ أما الآية.. فقد فسر العلماء الحياة الطيبة بالقناعة وذلك أن المؤمن يحيا حياة هنيئة تملأ قلبه بالقناعة والرضا، فالدنيا بالنسبة إليه ليست مصدر همّ وقلق أو جزع، وإنما همه الآخرة.. وهذه الحياة الطيبة لا ينالها إلا المؤمن، ذلك أنه يضع الأمور في نصابها الصحيح، فلا يجزع حيث يجب الصبر ولا يقلق حيث تجب الطمأنينة، ولا يجري وراء الفاني ويترك الباقي، ويزن الأمور بميزان صحيح يجنبه القلق غير المبرر والتعب الذي لا داعي له، هكذا المؤمن، بينما (الآخر) حياته ركض وهلع وجزع وقلق ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (الأعراف).

ـ هل تعني أن هموم المؤمن تختلف عن هموم الآخرين؟

ـ نعم.. المؤمن تنزل عليه المصيبة، تلو المصيبة، تلو المصيبة، فيزداد إيمانه ويقوى صبره ويزداد عزمه ويشتد صلبه ويعلم أنها من عند الله.. تكفيراً للذنوب أو زيادة في الدرجات فلا يصدر منه إلا «الرضا» واليقين بما عند الله، أما ضعيف الإيمان فربما يصبر عند المصيبة الأولى، ويثبت للمصيبة الصغيرة، ولكن إذا تكررت أو اشتدت جزع وسخط وانقلب على عقبيه، واستسلم للشيطان يزين له البعد عن الله، والركون إلى الدنيا ويقنطه من رحمة الله وفرجه، فيلجأ إلى كل أحد إلا الله، على الرغم أنه كان يصلي ويصوم ويقرأ القرآن ويقوم الليل!

أما صاحب الدنيا، فليس لله في قلبه مكان، همومه الدنيا، يفرح إذا ازدانت، يشقى إذا اكفهرت، وهكذا يعيش لأجلها ويموت لأجلها «**إن الله يبغض كل جعظري جواظ سخاب في الأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة**» (السلسلة الصحيحة).. هذا لا مكان للحياة الطيبة في قلبه.. حياته جسد بلا روح.. ضحكاته قهقهة دون سعادة.. غذاؤه أكل بلا طعم.. كما قال الله عز وجل: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (القلم). إنها نعمة الإيمان التي تعطي الحياة معناها الحقيقي، وإلا فالحياة بلا إيمان «موت».

المرض

إقترب مني بعد صلاة المغرب.. ناجاني دون أن يُسمع الجالسين في الصف الأول...

ـ لقد خرج «بدر» من المستشفى قبل قليل وهو في منزله الآن...

فاجأني بهذا الخبر حيث أنني سألت ابنه عبدالوهاب ولم يخبرني بمرضه.. أخبرته أنني سأذهب لزيارته بعد أداء السنة.

صاحبني «بو سالم».. الأب الروحي لشباب المسجد.

بعد السلام.. والسؤال.. أخبرنا «بو عبدالوهاب» أنه أخذ حبة ليعالج آلام الظهر التي نتجت من مشقة السفر.. فقلبت هذه الحبة الصغيرة كيانه.. وكاد «يروح فيها».. على حد تعبيره ولكن الله سلم.

ـ إن مرض العبد يعلّمه أموراً كثيرة.. هناك المرض المزمن.. والمرض المفاجئ. أمّا المفاجئ.. فيظهر للإنسان كم هو ضعيف لا حول ولا قوة أمام كثير من مخلوقات الله الضعيفة الصغيرة.. والمرض المزمن.. يعلم الإنسان الصبر ودوام اللجوء إلى الله والدعاء والتضرع راجياً الشفاء.

كان المتحدث «بو سالم».. استأنف حديثه..

ـ في الواقع لو نظر أحدنا إلى «المرض» لوجد أن كله خير!!! ومع ذلك لا ينبغي للمسلم أن يسأل الله أن يمرضه.. ولكن إذا مرض ينبغي أن يعلم أنه في خير.. ففي المرض تكفير للذنوب.. ولو كان المرض مجرد صداع.. أو مجرد حمّى.. فهي تكفر الذنوب.. هذه واحدة.. وإذا مرض الإنسان

وجب عليه السعي للتداوي.. إمتثالا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم: «**تداووا عباد الله فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء**» (صحيح ابن ماجه).. وبالطبع التداوي لا يكون بما حرم الله.. مهما كان المرض فلا يجوز التداوي بالخمر أو البيرة أو السحر أو غيره مما حرم الله...

أحضر الخادم الشاي... بعد أن سقانا أحدهم القهوة العربية سأل «بو عبد الوهاب».

ـ وماذا عن الحبوب التي تشعرك بالخمول والرغبة بالنوم؟

ـ طالما وصف الطبيب المسلم الدواء الذي لا سكر فيه فلا شيء في الدواء.

عقّب «بو عبدالوهاب».. وقد اعتدل في جلسته...

ـ المرض.. جرس انذار.. تنبيه.. يحتاج إليه كل إنسان بين فترة وفترة.. في مرضي المفاجيء هذا.. عندما بدأت أشعر بضيق في التنفس.. وألم في الصدر.. أُغمى علي.. تخبرني زوجتي.. أنها كادت تنهار.. بل انهارت بعد ذلك.. عندما فقدتُ الوعي والتحرك.. وبالكاد أتنفس.. وبالكاد ينبض قلبي.. أعتقد أن طغيان الإنسان وجبروته يندحران أمام المرض.. وخاصة إذا أصيب أحدهم «بالسرطان» ـ عافانا الله واياكم منه ـ وانتشر في الجسد.. وعلم الإنسان أنه يموت لا محالة وتقف الإنسانية كلها عاجزة أن تعمل له شيئا.. وإن كان صاحب أعظم ملك.. وأغنى مملكة إنها عبرة للإنسان.. ولكن إذا شفي الإنسان تراه يرجع إلى سابق عهده من معصية الله بل ومحاربة الله ورسوله.

داووا مرضاكم بالصدقة

«بووائل» له وجهة نظر غير تقليدية في الأمور .. كثيراً ما ينتبه لأمور تخفى على الآخرين.. سألني..

- حديث «داووا مرضاكم بالصدقة» ما معناه؟ (صحيح الجامع الصغير).

كنا في طريقنا لزيارة ابن أحد أصدقائنا أصيب بغيبوبة مفاجئة يوم الجمعة بعد صلاة العصر، بينما كان يضحك ويمزح وسط أهله.. أجبت صاحبي..

- المعنى واضح.. «يجوز لكم.. بل وينبغي أن تستخدموا أموال الصدقات في علاج المرضى» والحديث ثابت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

- ألا يمكن أن يكون المعنى «تصدقوا عن مرضاكم لأن من أسباب الشفاء التصدق».

أعجبني كلامه.. فكرت فيه.. قلبته في ذهني..

- ربما يكون هذا هو المعنى الأولى... فمن بركة الصدقات منع البلاء.. ورفع البلاء أيضا.. وأعرف أحد إخواننا كلما أقدم على سفر وضع في يدي عشرين دينارا صدقة، أُوصلها إلى الفقراء.. يهمس في أذني «دفعة بلاء» يرجو بهذه الصدقة أن ييسر اللّه أمره ويسهل سفره.

بلغنا مدخل المستشفى..

ـ هل تعلم أن عيادة المرضى من أحب الأعمال إلى قلبي.. كلما عدت مريضا استحضرت حديث النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن رب العزة «**عبدي مرضت ولم تعدني.. قال: وكيف أعودك وأنت رب العزة؟! فيقول: مرض عبدي فلان ولم تعده ولو عُدته لوجدتني عنده**» (مسلم).. وحديث النبي صلى الله عليه وسلم في عيادة المريض «**من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع**» (مسلم).. وأحب أن أدعو الله وأنا في زيارتي للمريض أرجو الإجابة من الله عز وجل.

وصلنا مدخل الجناح... طرقنا باب الغرفة بهدوء.. خرج إلينا والده.. دخلنا.. فإذا بذلك الشاب الضحوك.. النشيط.. المرح. مستلق على فراش المرض. مغمض العينين.. أوصلت فيه مجموعة من الأنابيب البلاستيكية والأسلاك الكهربائية.. تنظم تنفسه.. وتسجل نبضات قلبه.. أصابنا المنظر بذهول عقد ألسنتنا.. تقدمت نحوه، وضعت يمناي على رأسه.. قرأت ما حضرني من آيات وأدعية تناسب الموقف.. لم نجلس .. صحبنا والده إلى الخارج..

ـ أعانكم الله.. وأثابكم.. وصبركم.. وشافاه عاجلاً.. يا «أبا أحمد».

ـ جزاكم الله خيرا..

ـ منذ متى وهو على هذه الحال.

ـ منذ وقع في المنزل مغشياً عليه.. لم يتحرك.. ولم يفتح عينيه، ولم

يحصل له أي تحسن.. قال الأطباء: إنها عملية توقف مفاجئ للقلب.. ثم نقص في الأوكسجين للمخ.. وربما جلطة خفيفة في المخ.. والجميع لا يؤكد.. ولكنهم يجتهدون.. والحمد لله.

وضع «أبو أحمد» ورقات نقدية في يدي.. وهمس في أذني..

- تصدق بها على من تعلم. . عسى الله أن يشفي ابني.

صحة الأبدان والأرواح

إلتقيته بعد غياب أكثر من خمسة أشهر... فَقَدَ بضعة كيلو غرامات، أصبح جسمه مشدوداً، رياضياً، بعد السلام وبعض كلمات الإطراء.

ـ أراك اعتنيت بجسمك جيداً.

ـ الحمد لله.. كان الدافع الأكبر نتائج الفحوصات الأخيرة، اكتشفت أن الكوليسترول «عالي جدا» والسكر في بداية المستوى المَرَضي، وكانت نصيحة الطبيب أن أراقب أكلي، وأقلل وزني وها أنا كما ترى، أشعر براحة كبيرة، رياضة يومية في النادي، وبرنامج تدريبي تحت إشراف أحد المتخصصين، وملاحظة دقيقة لكل ما آكل، أعرف مقدار السعرات الحرارية التي تدخل جسمي والتي أستهلكها يوميا.

ـ إني فعلا مندهش أين «بومبارك» الذي يأكل أي شيء في أي وقت، ولا يؤمن برياضة ولا بحمية.

قاطعني..

ـ يا أخي، كبر أحدنا في السن ويجب أن ينتبه إلى صحته، هذه السكتات القلبية، والجلطات الدماغية، معظمها بسبب الأكل وعدم الرياضة.

ـ وماذا عن التدخين؟

ـ أبشرك.. إنتهيت منه تماما قبل أسبوع، تدربت على تركه منذ ثلاثة أشهر. وتخلصت منه تماما الحمد لله.

ـ الحمد لله.. أخبار طيبة.

قاطعني.. معترضا..

ـ ليست كل الأخبار طيبة، منذ أكثر من شهر وأنا لا أصلي الفجر في وقته، ووقت الرياضة يتعارض مع وقت صلاة العصر، فلا أصليها جماعة وإنما قبل المغرب بساعة تقريبا، والمغرب أصليها في البيت، والمسجد تعرفه، بجانب البيت، أما العشاء فمعظم الأوقات أصليها في المسجد.

ـ ولماذا هذا الإهمال؟

ـ لا أقول.. إلا قلة إيمان وضعف دين، وسلطان الشيطان... أحدنا يغير نظام أكله ونومه وراحته، بل ويبذل من ماله، لأجل ضبط مستوى الكوليسترول، وتنظيم الضغط، والمحافظة على القلب، أما إذا اختل إيمانه، وضعُف التزامه بدين الله فلا يجتهد في ذلك مع أن الإيمان حياة الأرواح، والتغذية حياة الأبدان، وشتان بين قيمة الروح وقيمة البدن.

ـ أريد أن أفهم هل هذا مجرد كلام تردده حتى تسكت الآخرين، أم حقيقة تؤمن بها وتصدق؟

سكت صاحبي.. قليلا..

ـ بل أعلم ذلك، وأؤمن به ولكنه ضعف إيمان عندي، وأحتاج أن أنتبه إلى إيماني، بل أحتاج إلى من يعينني بالفعل، سهل علي أن أحافظ على صحتي وأستصعب المحافظة على إيماني، شهر كامل لا أصلي الصبح إلا بعد طلوع الشمس، وكل يوم أقول غداً، والقرآن لا أقرأه الا إذا كان

هناك متسع من الوقت بعد أداء السنة إلى إقامة صلاة العشاء، أنا الذي كنت اقرأ القرآن كل ليلة، وأصلي خمس ركعات على الأقل كل ليلة، ولا تفوتني صلاة الفجر، وأحاسب نفسي إن فاتتني صلاة الجماعة.. اللّه يرحم حالي.

- جميل أن ينتقد المرء نفسه، ولكن لا تتوقف عند الكلام فحسب، أبذل الجهد المطلوب لترتقي بإيمانك وتحافظ عليه، وصحة الإيمان كما تقول أعظم من صحة الأبدان، نعم جميل أن يحافظ المرء على صحته، وشكله، ولكن القلب أولى من البدن، والروح أهم من الجسد.

البحث عن السعادة

كنت وزوجتي نتنزه في الحديقة المجاورة لشاطيء البحر.. كان الوقت بعد صلاة المغرب.. لاحظت أنها تراقب أسرة عربية افترشت البساط الأخضر.. أخذت الأم توزع برتقالة لكل واحد منهم.. بينما الطفل الصغير امتطى عربته البلاستيكية ذات العجلات الثلاث.. سألت صاحبتي..

ـ لِمَ تنظرين إليهم؟

ـ أرى في وجوه أفراد هذه الأسرة السعادة، ربما لا يملكون إلا مصروفهم حتى نهاية الشهر، ولكنهم في هذا المجلس ملكوا أمورا لا يملكها أغنى الناس.

ـ ومن قال أن السعادة في الغنى؟

ـ أيامنا هذه.. المال وسيلة للوصول إلى كل شيء. بل أصبح المال أساس التعامل، وتقييم الناس أصبح على أساس ما يملكون.

ـ هذا لمن غفل عن الحقيقة.. أما العاقل.. وأما المؤمن.. فإنه يعلم أن السعادة ليست في المال، وإن كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد امتدح المال الصالح.. فقال: «**نعم المال الصالح للعبد الصالح**» (المشكاة – صححه الألباني).. ولكن نِعَم الدنيا ليست المال، بل أوجزها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «**من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في بدنه، لديه قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بما فيها**» (السلسلة الصحيحة).. هذه واحدة.. والثانية «القناعة».. الرضا في القلب. هذه

نعمة عظيمة من لم يمُنّ اللّه عليه بها فلن تسعه الدنيا وإن ملكها كلها.. هذه هي الحياة الطيبة، التي وعدها اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات في قوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل).

ـ وأيضا المال ييسر أمور الحياة ويزيد السعادة!!

ـ أنت تفكرين بهذا المنطق، لأن اللّه أنعم عليك بكل شيء.. العافية... الأبناء الأصحاء.. الأمان الاجتماعي.. الزوج المثالي!! «نظرت إليّ مستنكرة» ماذا لو ـ لا قدر اللّه ـ رزقك اللّه ابنا مصاباً بمرض مزمن؟ ماذا لو لا قدر اللّه ـ أخذ اللّه منك الأمان فأصبحت أرملة أو مطلقة لامأوى لك ولا معيل؟ ماذا لو.. ماذا لو.. المرء ينبغي أن يذكّر نفسه بنعم اللّه، وينظر إلى من هو أسفل منه ويحمد اللّه دائما.. ويعلم أن السعادة أمر قلبي يهبه اللّه من يستحق من عباده.. مثلا الطمأنينة القلبية.. كيف يحصلها الإنسان ومن أين يشتريها أصحاب الأموال؟ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الرعد) وهل يعرف هذه الحقيقة إلا المسلمون؟ وهل يمارسها إلا المؤمنون؟!. «حسن الظن باللّه.. والتوكل.. واليقين» بما عند اللّه.. كل هذه أمور لا يعرفها إلا من تفضل اللّه عليهم فأعطاهم إياها لإيمانهم..وحسن عقيدتهم باللّه.. ولا يمكن أن يشتري أحد شيئا من هذا ولو بملايين الدنيا كلها..

ـ ومع ذلك زيادة المال تريح البال.. فيشتري المرء ما يشاء، ويذهب حيث يشاء، ويفعل ما يشاء.. وربما لن يكون سعيدا.. ولكن!!

ـ هنا القصد.. المرء قد يشتري الضحك.. ولكن لا يشتري السعادة، قد يشتري السرير المريح.. ولكن لا يشتري راحة البال والنوم الهانئ، قد يشتري أغلى الأدوية ويتطبب في أغلى المستشفيات، ولكن لا يشتري الشفاء.. وقد يشتري ألذ الطعام وأغلى الموائد.. ولكن لا يتمتع بلذة الطعام.. برتقالة.. وراحة بال.. واجتماع أسرة.. هي السعادة هنا...

رغبات الإنسان

ـ أنت تقول: إن نكاح المتعة حرام.. حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك ترى جواز زواج المسيار.. وتقول: إن العلماء اختلفوا في هذا النوع من النكاح.. أنا أريد أن أتزوج زواجاً صحيحاً.. ولكن لأجل المتعة.. فأتقدم لإحداهن.. أتزوجها.. مع بداية فصل الصيف مثلاً.. أسافر معها للمتعة.. ثم أطلقها...

ـ ولماذا تطلقها؟!

ـ لأنني لا أريد مشكلات مع أم أبنائي.. ولا أريد أن أفقد أسرتي.. ولا أن أحمِّل نفسي أعباء مادية ترهقني..

أزعجني صاحبي بفكرته هذه.. أعني فكرة البحث عن الملذات والمتعة.. وعدم مراعاة (روح الشريعة) في قضية الزواج.. كنت أعلم أنني لن أصل إلى شيء في نقاشي معه.. ولكن حاورته إبراء للذمة.

ـ ولكن ألا تشعر أنك تظلم الزوجة بأن تتزوجها ثم تطلقها بعد شهرين؟!

ـ وإذا وافقت هي على هذا ورضيت؟!

قالها بكل ثقة.. وكأنما أقام الحجة علي..

ـ هذا زواج صحيح بعقد وولي وشهود، ولكن يخالف روح التشريع الذي جعل في الزواج (سكينة) و (مودة) و(رحمة) وجعل عقد الزواج

(ميثاقاً غليظاً) والمرء إذا كان همّه البحث عن الشهوات، فإنه لن يتوقف عند حد.. كما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم الباحث عن لذة المال.. «**لو كان لابن آدم واد من ذهب أحب أن له وادياً آخر ولن يملأ فاه إلا التراب والله يتوب على من تاب**» (السلسلة الصحيحة) يظن بعض الناس أن الشهوة تتوقف عند حد.. ولكن بعد كل حد.. حد جديد.. لا يظهر إلا بعد بلوغ الحد الأول.. وهكذا يُفني الإنسان عمره باحثا عن إشباع غرائزه.. ولاتشبع ... حتى يدركه الموت وشهوته تدفعه..

لم يكن صاحبي مهتماً بما قلت.. سألني..

- هل هذا الزواج صحيح أم لا؟!

- فِقْهاً... لا شيء فيه .. وإذا - لا قدر الله - توفي الزوج فإن الزوجة هذه ترثه.. وتكون شريكة لأولاده في التركة مع أمهم..

- أعوذ بالله.. لماذا تذكر الموت هنا؟!

- الموت أقرب لأحدنا من قميصه الذي يلبسه، ولكننا لا نشعر .. ولماذا تزعجك فكرة الموت..

- لا أريد أحداً أن يشارك أسرتي في الورث.. ماذا لو جعلت شرطا في العقد أنها لا ترث؟!

- هذا الشرط باطل.. فإنها زوجتك شرعاً، وهذا حقها الذي فرضه الله لها، وما يدريك أنها لن تحمل أثناء فترة الزواج الموقتة هذه؟

- هذا نتفق عليه.. فهي لاتريد أولاداً مني وأنا لا أريد أولاداً منها.

ـ أمرك عجيب ياهذا.. لماذا كل هذا العناء... والسرية.. والتكتم.. والمصاريف.. خذ زوجتك وسافر معها.. بعد أن يقضي الأولاد فترة معكما أرجعهم إلى جدتهم أو عمتهم أو خالتهم.. واقض فترة إضافية مع زوجتك لوحدكما.. كما كانت أيام الزواج الأولى..

ـ ولكن أريد أن أذهب إلى أماكن ـ شاطئ البحر مثلا ـ وزوجتي لاتوافقني.. والأخرى لا تمانع أي شيء.

ـ يا صاحبي إن جري الرجل وراء الشهوات .. أو المرأة.. لا يؤدي إلى إشباعها أبداً.. هذا «المبدأ» يتعب الإنسان ويهدر طاقته.. ويضيع وقته.. ولا يورثه الطمأنينة والاستقرار.. اتق الله.. وانظر إلى أبعد من اللذة القريبة والشهوة الآنية... أنفق أموالك فيما ينفعك في الحياة وبعد الموت.. وضع وقتك فيما يعود عليك وعلى أسرتك بالفائدة في الدنيا والآخرة.. أما الشهوات الدنيوية فصدقني أنها لاتنتهي ولاتتوقف النفس إذا جرت وراء الشهوات إلا بخروج الروح.

بعض البشر أحط من البهائم

من الأعمال التي تريحني أن أجلس في المنزل وحيداً.. في غرفة المعيشة.. مستقبلا النوافذ الزجاجية الكبيرة المطلة على حديقة صغيرة تناثرت فيها شجيرات خضراء تسرح فيها أنواع من الطيور.. أجلس أحتسي الشاي أراقب الطيور التي لا تشعر بوجودي من وراء تلك الألواح الزجاجية العاكسة.. أدع القطط الصغيرة تشاركني المجلس فتقفز على الأريكة قبالة النافذة تراقب الطيور.. تتهيأ لتثب عليها والطيور غير عابئة لأنها لا تراها.

ـ هذه البهائم لم يخلقها الله عبثا.. بل الله لم يخلق حبة رمل ولا قطرة ماء ولا ذرة عنصر ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا لحكمة.. إنه هو «الحكيم» لا يصدر منه عبث قط.

ـ وإذا عجزنا عن معرفة الحكمة من خلق هذه الكائنات؟

ـ سبحان الله.. الإنسان يجعل من نفسه المرجع والحكم وما ذاك إلا لظلمه.. الإنسان مخلوق ضعيف في هذا الكون الشاسع.. من جهله «يشتغل بما لم يخلق لأجْله عن الذي خلق لأجْله».

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد خلق الله الإنسان لعبادته ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات)، العبادة بمعناها المحدّد أولاً.. التوحيد ـ الصلاة ـ الصيام ـ الزكاة ـ الحج.... وبمعناها العام. الالتزام بالأوامر والابتعاد عن

النواهي.. الظاهرة والباطنة.. ينصرف الإنسان عن هذا إلى مالا يعنيه.. كيف تكونت الأرض؟ متى ظهرت الأجرام في السماء؟.. متى تنتهي الحياة على الأرض؟ هل هناك حياة أخرى على الكواكب.. أسئلة لا تقدم ولا تؤخر.. وإن عرف الإنسان الإجابة عنها لن تنفعه في شيء.

ـ ولكن مطلوب من الإنسان أن يتفكر في خلق السماوات والأرض ويبحث.. هذا نوع من أنواع العبادات.

ـ هذه «العبادة» لا شيء مع معرفة العقيدة وتحقيق التوحيد.. ولا شيء مع أداء الصلاة والمحافظة عليها.. المطلوب من الإنسان أن يحقق ما خلق من أجله.. (عبادة الله).

ـ والعلماء والباحثون الذين لا يعبدون الله؟!

ـ هؤلاء يعملون لدنياهم.. ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (الروم). فإن كانوا من المشركين الذين يتمردون على الخالق وينكرون وجوده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (الأعراف).. الأنعام تؤدي ما خلقت من أجله.. وجميع الدواب تسبّح الله وكذلك الطيور.. ولاتتمرد على طاعة الله. تحقق ما يريده الله منها.. أما الإنسان الكافر فإنه دون شك أسوأ قدْراً من هذه الدواب والبهائم... ينكر مَن خلَقه.. وأوجده.. وأعطاه الحياة والعقل.. بل وأبقاه صحيحاً سليماً وسخّر له كل ما في الكون لتستقيم حياته.. ولكنه يتمرد على ربه وخالقه.. ويظن أنه الأقوى.. بل وصل به الأمر أنه زعم أنه «الرب الأعلى».. وذلك منذ آلاف السنين. فما بالك اليوم

مع ما وصل إليه الإنسان من تطور وتقدم مادي.. لا شك أن كثيرا من الناس يعلن أنه «وثني».. أو «ملحد».. وأنه لا يؤمن بإله.. وأن الحياة هي الحياة ولا شأن له بما بعد الموت.. هؤلاء يمثلون نسبة كبيرة من الغرب المادي... هؤلاء الذين هم ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾... هؤلاء يتمنون يوم القيامة لو كانوا حيوانات في الحياة الدنيا وذلك عندما يرون أن الأنعام تصير ترابا بعد أن يحكم بينها.. يقول الكافر ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)﴾ (النبأ).

الطبيعة لا تغضب

شاء اللّه أن يسكن (أنور) الحي ذاته الذي أسكنه.. كنا زميلي دراسة قبل عشرين سنة ثم لم نلتق بعد التخرج إلا مصادفة.. والآن أصبحنا جارين.. نلتقي كل صلاة.. دعوته إلى العشاء مع (علي)..

ـ هل تابعتم أخبار الأعاصير في الأسبوعين الفائتين.. ثلاثة أعاصير كبيرة تضرب فلوريدا.. كما قال مذيع الأخبار.. إنه غضب شديد للطبيعة هذه المرة!..

ـ وهل للطبيعة أن تغضب أو ترضى؟!

ـ إنه مجرد تعبير يستخدمه الغرب.. والعرب..

ـ إنه خطأ فادح.. الطبيعة مخلوق من مخلوقات اللّه.. الرياح.. الجبال.. الأعاصير.. الأمطار.. كلها.. لا تتحرك إلا بأمر اللّه.. كما أخبر اللّه عن ريح عاد.. ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف: ٢٥).. فجميع المخلوقات كلها.. تأتمر بأمر اللّه.. متى تتحرك وإلى أين.. وماذا تدمر.. وماذا تبقي.. ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ (الأحقاف).. البراكين.. ترسل الحمم.. وتصهر الحجارة.. لا خيار لها.. لا خيار لشيء في هذا الكون إلا (للثقلين).. الإنس والجن. هما اللذان يطيعان أو يعصيان.. أما الحيوانات والجمادات والطبيعة ـ كما يسمونها ـ فلا أمر لها ولا خيار إلا أن تنفذ أوامر اللّه عز وجل.

ـ وماذا عن قول اللّه عز وجل.. ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ (الأحزاب)؟

- في تفسير هذه الآية أقوال لعل مجملها هو أنه لو أعطيت هذه المخلوقات الخيار لحمل التكاليف الشرعية (الأمانة) لأبت.. أو أن ذلك في الواقع حصل لبيان عظم هذه الأمانة.. أما الإنسان فلجهله وظلمه لنفسه - وهذا الكافر - حملها ولم يؤدها.. أما حالة هذه المخلوقات فهي كما قال الله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾ (الحج) فالمخلوقات أذعنت لله.. وخضعت.. واستجابت.. بل كل المخلوقات تسبح لله عز وجل.. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ (الإسراء).. إلا الإنس والجن.. منهم الصالحون ومنهم دون ذلك.. منهم المسلمون ومنهم المجرمون.. والأغلب من الفئة الثانية.. ولذلك معظم أوصاف الإنسان على العموم فيها (ذم).. رغم أن الله كَرّمه.. إلا أنه (ظلوم) (جهول).. (قتور).. (عجول).. (هلوع).. (جزوع).. (منوع).. وبالطبع يستثنى من كل ذلك.. الصالحون المتقون الآيبون التائبون المسلمون المقسطون.. وهم القلة..

أدركت وصاحبي منزل (علي).. وكان بانتظارنا في الخارج.. توجهنا إلى مبتغانا.. وقضينا أمسية جميلة كما كنا قبل عشرين سنة..

مسلمون.. بأخلاق المنافقين!

لم يتمكن من إخفاء همه، بينما انزوى بعيدا في ركن من أركان المسجد، يتلو كتاب الله عز وجل.. أخذت مكانا قريبا منه دون أن أفسد عليه خلوته.. حدثتني نفسي أن أجالسه، أخفف عنه.. ولكن لم أدر كيف أفعل ذلك دون أن أضايقه.. قام بعد فترة.. صلى ركعتين.. وضعت مصحفي جانبا لعله يشعر برغبتي في الحديث معه.. فيأتيني..

وبالفعل.. بعد التسليمة الثانية إلتفت ناحيتي.. رآني متكئاً.. أتى.. حمدت الله سراً.. بعد السلام..

ـ أراك متضايقا..

لم أتم كلامي..

ـ والله لقد سئمت تصرفات بعض البشر.. تراهم يصلون معك.. يبتسمون لك.. ثم يطعنونك عندما تغيب عنهم.. أليس ذلك نفاقا؟ يكذبون.. يبهتون.. وأشد ذلك أن تكون أحسنت إلى أحدهم.. فيرد الإحسان إساءة.

ـ هوّن عليك.. البشر فيهم الطيب والسيئ.. وأنت عندما تحسن إلى أحد، فإنما تبتغي وجه الله.. فأنت تتعامل مع الله لا مع البشر.. فاحتسب.. وإذا أساء إليك أحدهم فاصبر فأجرك أعظم عند الله.. و..

قاطعني..

ـ أليس منافقا من يؤدي الصلاة أحيانا ثم يكذب؟ أليس منافقا من يغدر؟.. أليس منافقا من ينشر الأكاذيب عن المسلمين؟؟

ـ النفاق نوعان.. عملي واعتقادي.. والنفاق الاعتقادي هو الذي توعد اللّه صاحبه بالخلود في الدرك الأسفل من النار.. أما العملي، فهو ما يقع من بعض المسلمين من أخلاق المنافقين.. كالكذب، والغدر، والخيانة، والتمادي في الخصومة، والكسل عن الصلاة، وتأخير الصلاة حتى آخر وقتها ونقرها كنقر الغراب ولمز المؤمنين عند عمل الصالحات من الدعوة أو الصدقة والاستهزاء بالدعاة إلى اللّه.. هذه أخلاق للمنافقين يتصف بها بعض المسلمين مع الأسف الشديد.

ـ أليسوا منافقين؟!

ـ كلا.. لا تصفهم بذلك.. فإطلاق كلمة «منافق» على مسلم إتهام خطير.. وينصرف إلى النفاق الاعتقادي.. ولكن اصبر وانصح.. وليتدخل من يستطيع أن ينبهه إلى خطورة ما يقوم به.. فإن لم يرتدع ويقف عند حده.. فإن الجميع يجب أن يحذروا مكره وكذبه وأخلاقه السيئة.. وفي كل ذلك تعامَل مع اللّه.. واحتسب الأجر من اللّه عز وجل.. فإن المؤمن يُبتلى.. والصبر أجره عظيم.

هدأ صاحبي قليلا.. شاركنا المجلس (بوصالح).. فتغير موضوع النقاش.. ولكن أظن أن صاحبي يحتاج إلى جولة أخرى لنتعامل مع ما قيل من افتراء عليه.

خدعوهم.. قالوا نجوم!

بعض الناس يتابعون المطربين والممثلين.. يحفظون أغانيهم.. يهتمون بأخبارهم .. يحضرون حفلاتهم.. ويبذلون في ذلك الأموال.. فضلاً عن الأوقات والجهد والطاقة..

كنت وصاحبي في الخيمة التي أعددناها للصلاة بعد أن انفض الآخرون من صلاة المغرب..

ـ بصراحة لا أدري.. أنتقد هؤلاء الذين احترفوا ما أسموه بالفن من غناء وتمثيل بكل توابعه من تأليف أو تلحين أو تصوير.. أم أشفق عليهم؟..

ـ لِمَ النقد ولِمَ الإشفاق؟!

ـ النقد.. لأنهم يشغلون الناس عن ذكر اللّه.. ويعينون الشباب على معصية اللّه.. ويتعاونون على مالا يرضى اللّه.. وينشرون الطرب والغناء وهذا مما حرم اللّه.. والإشفاق.. لأنهم «يهلكون» أنفسهم.. و«يمتعون» الآخرين.. استوقفني..

ـ فهمت الأولى.. ولم أفهم الثانية..

ـ إن الذين احترفوا «الفن» فأصبح مصدر رزقهم.. أوقعوا أنفسهم في محاذير كثيرة.. أموالهم التي يأكلون ويشربون ويلبسون منها.. أموال سحت.. حياتهم «دوامة» من الحفلات والسهرات والتصوير.. وعندما يموتون يتركون تركة كبيرة من أشرطة الغناء والتمثيل سواء المسموع منها أم المرئي، وهذا يضرهم بعد الموت ولا ينفعهم. فإذا سألهم اللّه عز

وجل.. وسوف يسألهم دون أدنى شك.. عمرك فيما أفنيته؟ شبابك فيما أبليته؟ مالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته؟.. ماذا ستكون إجاباتهم.. رسولنا يدعونا إلى أن تكون ألسنتنا «رطبة» بذكر اللّه.. وألسنتهم رطبة بكل أنواع الغناء والطرب والموسيقى؟ آذانهم اعتادت الموسيقى.. وقلوبهم تشربت الطرب.. وعقولهم تهتز مع الألحان..

قاطعني..

ـ ولكن بعضهم يصلي؟!

ـ حتى المصلى منهم سيحاسب على وقته الذي ضاع في غير ذكر اللّه.. ولا شك أن الغناء ليس ذكراً للّه عز وجل.. بل بعضهم.. يخدع نفسه فيقرأ «الفاتحة» قبل أن يصعد خشبة المسرح لحفلة غنائية.. أليس في هذا استهزاء بآيات اللّه؟!

وبعضهم إذا امتلأت المدرجات وانتشرت أغانية قال: «الحمد للّه» ويظن أن ذلك سيحلل له العمل.. ويبيح له المعصية!! إني فعلاً أشفق على هؤلاء.. يظنون أنفسهم «يحسنون صنعاً».. يفتخرون بالشهرة.. وينخدعون «بالنجومية»..

ـ ولكن الإعلام يلقبهم بـ «نجوم».. و«كواكب».. و«سفراء»... و«أمراء».

ـ لو كان أحد يستحق لقب نجم.. فصحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هم «النجوم».. يُقتدى بهم.. ويُهتدى بآثارهم.. أما هؤلاء فليسوا سوى أناس انبهروا بزخرف الدنيا.. فضلوا السبيل الحق.. نسأل اللّه لهم الهداية قبل الموت!!

تمائم الخادمات

بعد صلاة العصر سبقني إلى المنزل وانتظر في سيارته.. عرّفني على نفسه.. كان أحد الجيران الجدد.. أخذنا مجلسنا في الديوان.. أخرج لي وريقات وقطعة قماش ربطت بإحكام.. وضعها على الطاولة.

ـ بعد وفاة والدي.. وذلك منذ تسعة أشهر تقريباً.. أخذت والدتي تشكو من صداع شديد.. ثم بدأت تتجنب المبيت في غرفتها.. ثم ازداد الأمر سوءاً فأخذت تشعر أن هناك شيئا ما في منزلنا يجعلها لا ترغب في البقاء بالبيت مطلقاً، وربما ضاق تنفسها واستمر هذا الأمر حتى تركت بيتنا وهي تعيش الآن مع ابنتها..

تجنبت أن أقاطعه فاستمر في حديثه..

ـ وأنا وأخواتي الثلاث في المنزل.. لا ندري كيف نتصرف.. إلى أن قامت شقيقتي الكبرى بتفتيش غرفة خادمتنا.. فوجدت هذه الوريقات، وهذا القماش.. وعندما عرضَتها على إحدى صديقاتها في العمل أخبرتها أنه سحر ويجب عرضه على أحد..

ـ وما علاقة هذا «السحر» إن كان سحرا.. بحالة والدتك؟!

ـ تعتقد أختي أنه ربما تمارس الخادمة السحر لتضر والدتي.. لا سيما بعد وفاة الوالد.. وبالطبع خلال التسعة أشهر الماضية قرأنا القرآن في المنزل.. وحتى أثناء غيابنا نترك شريط القرآن يعمل، لا سيما سورة البقرة.. ولكن لا فائدة..

استدعيت خادمتنا لتقرأ ما كتب في الأوراق.. تعرفت على الوريقات قبل أن تقرأها وقالت هذه الأمور مشهورة جداً في بلادنا.. وتنشر لها إعلانات في الجرائد، لمن أرادت أن تغادر البلاد لتعمل في الخارج يعمل لها ما يحفظها مقابل أموال طائلة..

إستأذنت صاحبي في فتح قطعة القماش.. وجدت فيها ورقة غرس فيها دبوس.. وقطعة كالطين الأسود غرس فيها ما يشبه المنقار.. وكنت اقرأ المعوذتين وأنا أقلب ما بيدي..

ـ إنها (تمائم وأحجبة).. ولقد أعطاني مثلها ثلاثة أشخاص آخرين.. وهؤلاء الناس.. سواء كانوا مسلمين أو نصارى أو بوذيين أو غير دينيين.. يعتقدون بهذه الشركيات.. وما عليك إلا أن تعلمها العقيدة الصحيحة أو تتصل بإحدى الجمعيات التي تقوم بتعليم الإسلام الصحيح لهؤلاء الخدم وتكسب فيها الأجر العظيم إن شاء الله..

ـ وماذا أعمل بهذه الأحجبة والتمائم؟

ـ اتركها معي إن شئت..

ـ نعم.. ولكن ما الذي ستفعله..

ـ تعال معي..

جمعتها كلها في علبة صفيح وأنا اقرأ الآيات والأدعية.. ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٠٢).. والمعوذتين والفاتحة.. وأحرقتها.. رجعنا إلى مجلسنا..

ـ وماذا عن الوالدة؟!

ـ بصراحة.. أقترح أولاً أن تراجع أحد الأطباء المتخصصين لتتأكد من أنها لا تعاني من مرض عضوي، والوالدة ربما يناسبها أن تسافر لفترة وجيزة مع من ترتاح إليه من أبنائها.. وأن الشياطين لا سبيل لها إلى المؤمن ولم يجعل الله للجن سلطاناً على عباده لذلك لا داعي للظن بأنها تحتاج إلى من يقرأ عليها دوماً.. لأنها بإيمانها وتوكلها على الله تكون أقوى في مواجهة مصاعب الحياة، لاسيما بعد أن فقدت شريك عمرها بعد خمسين سنة!!

الوسط

منذ فترة وحديثي مع أم البنات عن زواجهن وأوصاف ومؤهلات الأزواج...

ـ نريده وسطا.. غير ملتح ولكن يصلي وجامعياً بالطبع وذا سمعة طيبة.

ـ أفهم المواصفات الأخيرة.. ولكن ما معنى أنه وسط في الدين؟!

ـ أعني ألا يكون متشدداً.. متزمّتاً.. يصر على أمور لا داعي لها.

ـ وماذا عن حديث النبي صلى اللّه عليه وسلم «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه**» (حسنه الألباني).

ـ هذا لذلك الزمان.. أما زمننا هذا فأهل الدين معظمهم لا يفهمون الدين، كما ينبغي مثل «فلان».. لحيته إلى نصف صدره، ولكن سُمعته في العمل أنه لا يترك فتاة إلا ويتحرش بها.. ولا تمر أنثى إلا ويتفحصها بنظره من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

ـ لقد اخترت مثالاً سيئاً.. ومن قال لك أن معظم المتدينين هذه صفاتهم؟

ـ لا أريد أن أخوض في هذا الأمر.. ولكن هذه طلبات بناتك.. ثم ألم يقل اللّه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن

يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ (البقرة).. الوسط في كل شيء أفضل، وكما يقال «خير الأمور أوساطها».

ـ هذا مفهوم خاطئ للآية.. فإن قوله تعالى «وكذلك جعلناكم أمة وسطا».. يقرن بقوله تعالى ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ (آل عمران)، وكذلك قوله تعالى ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ (آل عمران).

هذه هي صفات هذه الأمة، أنها خير الأمم.. ومعنى «وسطا» أي غير ضالة ولا مغضوب عليها.. غير متشددة في باطل ولا مفرطة في حق، تأتمر بأمر الله وتتبع نهج الرسول صلى الله عليه وسلم، دون غلوّ ولا تفريط.. فالله تبارك وتعالى ذم تعنت اليهود.. وتساهل النصارى، أولئك عرفوا الحق وأعرضوا عنه وهؤلاء جهلوا الحق ففرطوا فيه، عندما أمرهم الله بذبح البقرة «تشددوا». وعندما أمر هؤلاء باتباع عيسى عبدوه، أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم اتبعوا رسولهم ولم يؤلهوه. وطبقوا أوامر الله ولم يتساهلوا فيها، هذا معنى الوسطية والخيرية.. سكتت قليلا.. علقت.

ـ ولكن في زمننا هذا يجب أن نراعي الظروف والعادات والتقاليد، مثلاً لا معنى للإصرار على النقاب، أو الإصرار على عدم قيادة

المرأة السيارة، أو الإصرار على عدم خروجها من البيت.. أو غير ذلك من أمور.

ـ ماذا تعنين ببعض الأمور الأخرى؟

يعني: شيء من المكياج الخفيف لا بأس به.. بعض الثياب الضيقة.. بعض العطر.

ـ هذا خروج عن أمر الله ومعصية لرسول الله... وليس من الوسطية بل من الجنوح عن الوسطية وفيه تضييع للدين «**إن الدين يُسر**» (البخاري).. ولكن هذا التيسير ليس معناه التمييع والتضييع.. ما نهى الله عنه ننتهي.. وما أمرنا به نأتي منه ما استطعنا.. أما إباحة المعصية بحجة «يسر الدين» هذا من الباطل.. وأمة محمد لم تكن خير أمة إلا لأنها «تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله».. ومتى تخلت عن هذه الصفات، فإنها ليست الأمة الوسط.. وليست خير أمة، ولن تنال شرف الشهادة يوم القيامة على الأمم الأخرى، ولا محاباة في ذلك عند الله، والرسول صلى الله عليه وسلم لن يشهد لهذه الأمة إذا تنكبت الدرب وتنكرت لسنته بل سيشهد عليها ويدعو عليها عندما يخبر بذلك يوم القيامة ، فيقول «**سحقاً.. سحقاً**» (متفق عليه)، وذلك لمن بدل دين الله وحارب سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لماذا ابن تيمية بالذات؟!

اكتشفت منذ فترة ـ ليست بالقريبة ـ أنني لا أستطيع متابعة أي برنامج تلفازي لأكثر من نصف ساعة.. ومعظم الأحيان ربع ساعة تكون حدود قدراتي..

سألني أحدهم عما إذا كنت تابعت حلقات نقاشية عن تراث ابن تيمية..؟

ـ أصدقك القول: إنني شاهدت لقطات منها.. إستمعت إلى شيء مما قاله السقاف.. وشيء مما قاله عرعور.. هذا ينتقد، وهذا يرد..

ـ بل لابد أن تتابع الحلقة المقبلة سيشارك فيها البلوشي...

لا أذكر لماذا.. ولكن لم أتابع تلك الحلقة التي أوصاني صاحبي عليها!! إلتقيته بعدها بيومين..

ـ ها.. ما رأيك بالحلقة الفائتة من النقاش عن «ابن تيمية»؟!

ـ آسف.. لم أتابعها..

(خاب ظن صاحبي...)

ـ ولكن لماذا؟!

ـ ماذا.. لماذا؟!

ـ لماذا مناقشة فكر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بالذات.. سبقه علماء وجاء بعده آخرون.. لماذا هو بالذات؟!

هذا السؤال أود أن تجيبني عليه أنت؟!

ـ لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عالماً ربانياً مجاهداً .. جاهد الفرق الضالة جميعها .. أهل الكلام والمنطق والفلاسفة، والصوفية، والرافضة، والمرجئة، والقدرية، والمعتزلة .. كتب من المصنفات ما بقي إلى اليوم مرجعاً لحملة الدكتوراة وعلماء الأمة .. وسيبقى بإذن الله ويزداد هو بذلك أجراً ومكانة عند الله عز وجل .. كما جاهد بسيفه التتار .. وفنّد أفكارهم وقاتلهم .. وكان بحق مرجعاً للناس في حربهم وسلمهم .. فلا يبغضه إلا أحد المنتمين إلى إحدى هذه الطوائف .. أما علماء أهل السنة، فإنهم لا يلقبونه إلا بشيخ الإسلام .. وكان أحمد بن حنبل قبل ابن تيمية .. ورد على هذه الفرق الضالة وناقش عقيدتهم ودحض حججهم .. ولقي في سبيل ذلك ما لقي .. فقد سجن وعذب في قضية «خلق القرآن» .. فلماذا ابن تيمية؟! وحمل لواءه من بعده تلميذه ابن القيم .. ودحض حجج الفرق الضالة ودافع عن شيخه وكان على نهجه .. فلماذا ابن تيمية؟!

أظن أن أحداً لم يغظ هذه الفرق الضالة قدر ما أغاظهم ابن تيمية .. فقد فنّد كل حججهم .. وكان من أسلوبه أن يأتي بأدلة لا يعرفونها .. ويرد عليها .. وبقي علمه بفضل الله تعالى إلى اليوم .. ويزداد انتشارا بين المسلمين، وكلما أراد أحد العلماء الرد والبيان، استشهدوا بأقوال ابن تيمية ـ رحمه الله رحمه واسعة.

ـ وماذا عن بعض الآراء الفقهية التي خالف فيها ابن تيمية جمهور العلماء .. وتفرد بآراء لم يسبقه إليها أحد؟

ـ ابن تيمية ـ رحمه اللّه ـ بشر.. ليس كأحدنا.. وليس مجرد عالم، وإنما شيخ العلماء، وسيد المفتين.. ولم يكن أحد مثله في زمانه، ولكنه بشر.. يخطئ.. ولا نزعم ـ في عقيدتنا ـ العصمة لأحد بعد النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وما صدر منه من خطأ، فإنه لا شيء أمام الخير العظيم الذي بلّغه والرسائل العظيمة التي خلّفها، فالخطأ الواحد لا يمحو مئات بل آلاف الحسنات في المقابل.. ونحن لا نعرف الحق بالرجال.. بل نعرف الحق.. فنعرف أهله.. أما أهل الأهواء، فالحق عندهم ما ارتبط برجالهم دون الرجوع إلى الكتاب والسنة.

رحم اللّه ابن تيمية رحمة واسعة.. وزاده في الأجر والثواب والمنزلة إلى يوم القيامة...

هكذا تقوم الأمم!

كنت خامس خمسة جلسنا خارج المجلس بين المغرب والعشاء بينما انشغل الخادم بإعداد الشاي على الفحم.

- إن ما يمر به إخواننا في فلسطين شيء مروع... يشعر المسلم بالخجل أنه لا يعمل شيئا..

- العجيب هذا الإجماع على الصمت. العرب.. المسلمون - العالم كله يشاهد.. ويسمع.. مدنيون يذبحون.. أطفال ونساء وشيوخ.. يقتحمون المنازل.. يعتقلون الأبرياء.. يهاجمون العُزل.

- لا عليكم إنها نهاية اليهود.. تقوى شوكتهم ثم يندثرون..

عجبنا لمنطق «بوعبد الله».

- كيف ذلك.. وهم في صعود والأمة الإسلامية في إندحار ونزول؟

- أليس الله بقادر على أن يخسف بهم الأرض.. أو يرسل عليهم حاصباً.. أو يسلط بعض مخلوقاته عليهم.. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (يس).

- ولكن ما هكذا تقوم الأمم ولا تفنى.. نعم لقد أهلك الله عادا وثمود وقوم لوط.. ولكن ليس بالمعطيات التي بين أيدينا اليوم..

- إن الله قادر على كل شيء..

- ونعم بالله.. نحن نؤمن بقدرة الله.. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.. (المدثر) ولكن الله وضع سُنَنًا لقيام الأمم.. سُنن.. بمعنى خطوات وأسباب.. خذ على سبيل المثال.. لو أراد الله لنبيه أن يبعثه على رأس دولة قوية.. لديه من الجنود ما لديه ويسلط على قريش وأعداء الدين ما يشاء فيهلك الظالمين وينصر رسوله، صلى الله عليه وسلم، وأشرف الخلق.. وأحبهم إليه. أليس الله بقادر على ذلك؟ بلى.. ولكن سنة الله اقتضت أن يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم، ويؤمن به نفر قليل ويعذبوا حتى يطلب خباب بن الإرت من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم بالنصر فيأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر.. ويخبره أن ما يلاقونه قليل بالنسبة لما لاقاه من كان قبلهم من المؤمنين في الأمم السابقة ثم يهاجر نفر من أصحابه ثم يحاصرون في مكة ويستمر الرسول صلى الله عليه وسلم في عرض دعوته.. ويطرد.. ويضرب ويهان.. ويسب .. وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الكريم.. العزيز .. الشريف.. ويلاقي من أهل الطائف ما يلاقي ثم يضطر للهجرة.. متخفياً.. إلى المدينة.. ويلاقي فيها ما يلاقي من كيد اليهود.. ومكر المنافقين. ويقضي آخر عشر سنوات من حياته في معارك دائمة كل عام معركة تقريبا.. وينتصر في بدر ويهزم في أحد.. لأن بعض المقاتلين خالفوا أمره.. وهكذا تبدأ الدولة تقوم على أكتاف رجال تم اختبارهم ومُحصوا ويُتوفى الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يعش ليرى الفتوحات العظمى وإنما وضع الأساس فحسب. ثلاث وعشرون سنة من المعاناة مع خيرة البشر لوضع الأساس فقط.. ثم قامت الأمة قوية.. هكذا تقوم

الأمم، أما ا لذي يحلم أن اللّه سيرسل طيراً أبابيل ليقضي على أعداء الأمة من اليهود والمنافقين والمشركين وتقوم أمة الإسلام هذا سيبقى في حلم حتى يتوفاه اللّه.. ومن كان يظن أن الأمة تقوم بجهود شخص هنا أو هناك وبتفجير باخرة هنا أو هناك فهذا واهم بلاشك.. إن إقامة أمة يحتاج إلى رجال يمتحنون ويبُتلون ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ (محمد)... ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾... (محمد).

الأقصى في عقيدتنا

بعد خطبة الجمعة وبعد أن تفرق الناس أتاني «بو خالد» وبعد العناق والسؤال وبطريقته الهادئة المهذبة إمتدح الخطبة.

- ولكن توقعت أن تتحدث عن الأقصى وتذكّر الناس بما يجب عليهم تجاه هذا المسجد السليب.

- صدقت يا صاحبي.. وكدت أفعل ما تقول.. ولكن تعلم أننا تكلمنا عن هذا الموضوع الأسبوع الماضي.. فترددت أن أعيد ذات الموضوع هذا الأسبوع.

- إن موضوع الأقصى.. لا ينتهي ولا يُملّ مهما تكلمنا عنه.. ولكن وددت لو ذكرت الناس بمكانة الأقصى في عقيدتنا.

- هذا صحيح.. ولقد ذكرت في الأسبوع الماضي.. أن الأقصى ذكر في القرآن وسيبقى ذكره في كتاب الله إلى يوم القيامة.. ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ (الاسراء) وأن القتال مع اليهود ينبغي أن لا يكون إلا على أساس العقيدة إن كنا نريد النصر من عند الله.. وهذا ما ذكره الله في كتابه ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الإسراء).

- أردت أن تذكر هذه العقيدة.

ـ لقد ذكرتها بالتفصيل الأسبوع الماضي.. وزدت أن الساعة لن تقوم حتى نقاتل اليهود.. وأن مزاعم اليهود بأنهم يريدون إقامة هيكل سليمان وغير ذلك من مزاعم دينية كلها باطلة ولا أصل لها.. بل لوكان موسى عليه السلام حيًّا لما وسعه إلا أن يتبع محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم واليهود يعلمون ذلك.. ويعلمون كذلك أن توراتهم محرفة.. وأن الله لعنهم وكتب عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة.. وأنه لا سبيل لهم أن يقاتلوا المسلمين على أساس العقيدة والإيمان ولذلك يسعون بكل ما أوتوا ألا ترتفع راية الجهاد.. وتبقى القضية في إطار «العلمانية» والسياسة الدولية وقرارات مجلس الأمن.

ـ هل يعلم اليهود أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حق وأنه رسول من عند الله؟!

ـ بالطبع.. أنت تعلم أن اليهود «أهل كتاب».. وكانوا يقرأون.. وجاءهم موسى بالتوراة.. ثم جاءهم «يحيى» يبين لهم أحكام التوراة الصحيحة.. وعندهم التلمود الذي هو تفسير للتوراة... وفي كل ذلك بيان ووصف لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بل كان اليهود في المدينة يبشّرون بظهور نبي وكانوا يتوعدون أهل المدينة «من الأوس والخزرج» بأنه سيظهر نبي جديد وسيتبعونه وسيقاتلون معه مشركي العرب..

وذكر الله هذا الأمر في القرآن.. ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ (البقرة).. فقد كانوا يعرفون أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرف

أحدهم ابنه.. ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (البقرة).

ـ ولماذا يتمسك اليهود بالباطل وهم يعلمون؟

ـ إن اليهود قوم عنيدون.. يعاهدون ويغدرون.. يتسلطون إذا واجهوا الضعيف ويذلون إذاواجههم القوى.. إسمع قول الله تعالى.. ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ (الأعراف).. يشكّون في وعد الله.. لا يعرفون «سمعنا وأطعنا» مع الله ورسله.. فعندما أمرهم موسى أن يدخلوا القرية ووعدهم بالنصر إذا هم دخلوا.. كذّبوه وقعدوا وقالوا.. ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (المائدة).. هؤلاء القوم لا يمكن أن نقاتلهم إلا بـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله».. وسيبقى أمرهم على المسجد الأقصى حتى يهيئ الله «عباداً له»... يرفعون راية الجهاد الحق.. ساعتها.. ستفتح بإذن الله!!!.

عقيدتنا في اليهود (١-٣)

يتهمني صاحبي أنني (متشدد) في العقيدة.. وأبالغ في موضوع الإعتقاد بطريقة تولد (حساسية) عند العامة تجاهي.

- تتكلم عن صفات الله (بسهولة).. والعامة يتحرجون.. تتكلم عن (الكفر) بثقة.. والعامة يتوقفون.. تتحدث عن الغيبيات بثبات والعامة يترددون..

كان صاحبي ينتقدني.. يخرج الكلمات صادقة وبحرارة من أعماق قلبه.. (نور).. باكستاني الجنسية.. ولد في إحدى دول الخليج.. يتكلم الفصحى بطلاقة.. قدم إلى الكويت منذ عشر سنوات.. ألتقيه مرة أو مرتين في الشهر.. أشعر أنه يحبني..

- ألا تظن يا (نور).. أن غاية جميع الشرائع السماوية هي (العقيدة).. وتوحيد الله في العبادة..

- نعم سمعت عن هذه الدعوة.. وكثير من الناس.. بل الغالبية الكبرى ترى أنها دعوة (منطقية).. في ظروفنا القائمة...

- ما المنطقي في تسوية الشرك بالتوحيد؟!!

قلتها بشيء من العصبية والحدة..

- سبب هذه الدعوة جهل الدعاة إليها بعقيدة الإسلام تجاه اليهودية والنصرانية.. وهي عقيدة واضحة جلية محددة المعالم في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم..

ـ أنا موافق معك.. ولكن لأجل النقاش ما هي هذه العقيدة؟

ـ إن عقيدة المسلم في اليهود هي ما ذكره الله عنهم في كتابه.. تصفح القرآن واقرأ.. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (المائدة) يعتقدون كذبا أنهم أحباء الله.. وردّ عليهم زعمهم وكذبهم.. فقال عز وجل ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ (المائدة: ١٨).

بعث الله إليهم عددا كبيرا من الأنبياء والرسل.. قتلوا بعضهم وكذبوا آخرين..

- سامهم فرعون عذاباً شديداً بأن أمر بقتل الذكور وإبقاء الإناث... إلى أن بعث الله موسى (عليه السلام) يتربى في بيت فرعون ليكون رسولاً لبني اسرائيل وينجيهم الله من عذاب فرعون.

- عبدوا العجل عندما ذهب موسى لميعاد الله وغاب عنهم أربعين ليلة..

- قالوا إن عزيرا ابن الله..

- إمتنعوا أن يدخلوا القرية التي وعدهم الله إياها... مع أن الله وعدهم بالنصر إن هم دخلوا الباب.. ولكنهم أبوا.. فحرمها الله عليهم.. وتاهوا في الصحراء أربعين سنة..

- فضلهم الله في زمانهم...

● زعموا أنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا .. فكذبهم الله .. ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة)..

● زعموا أن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا يهودا فرد الله عليهم.. بأن التوراة أنزلت بعد إبراهيم ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (آل عمران).

عقيدتنا في اليهود (٢ ـ ٣)

تابعت وصاحبي (نور) السير على شاطئ البحر.. اخترنا الابتعاد عن الممشى تجنبا أن يسمع الناس نقاشنا.. تابعت حديثي عن اليهود...

ـ وعقيدتنا التي لا نشك في صحتها أن اليهود أشد الناس عداوة لنا.. وإن أظهروا غير ذلك.. قاطعني...

ـ ولكنك تجد أحيانا أفراداً منهم (محترمين جداً) يعاملونك بود وتقدير.

ـ نحن نتحدث عن الأمة في مجموعها. لا أفراد شاذين.. اليهود كأمة يعادون المسلمين كأمة... ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (المائدة).. ولن يرضوا من المسلم إلا أن يغير دينه.. إما بترك الإسلام والإيمان إلى لا شيء أو أن يتبع ملتهم وهذه الغاية الكبرى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ (البقرة).

ـ ألا يوجد يهود متدينون يتبعون تعاليم موسى الأصلية التي جاء بها؟

ـ ان العقيدة الصحيحة هي أن اليهود حرفوا التوراة التي جاء بها

موسى.. ولا ينبغي أن يوجد يهودي يتبع التوراة الأصلية الحقيقية التي جاء بها موسى بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم.. فمن أوامر موسى أن على اليهود اتباع النبي الذي سيبعث في آخر الزمان.. محمد صلى الله عليه وسلم وكانوا يعلمون أنه سيبعث.. ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (البقرة)... أي كانوا يهددون الأوس والخزرج ـ قبل إسلامهم ـ بأنه سيبعث نبي وسيتبعونه ويؤمنون به ويقاتلون الكفار.. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾ (البقرة: ٨٩)... بل لو كان موسى حيا فلن يسعه إلا أن يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم.. كما ثبت في الحديث الصحيح..

ـ وماذا عن علاقة اليهود بالنصارى؟

ـ علاقة اليهود بالنصارى واضحة في عقيدتنا.. الجميع يعلم أنه سيظهر المسيح الدجال في آخر الزمان وهذا في عقيدتهم.. وعقيدتنا.. واليهود يقولون إن النصارى ليسوا على شيء وكذلك النصارى يقولون إن اليهود ليسوا على شيء.. وكلاهما مخطئ.. فإن الذي اتبع موسى وصدّق به وآمن معه كان على الحق.. وسينال هؤلاء رضا الله.. وبعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان ينبغي على اليهود والنصارى اتباع أوامر أنبيائهم وتعاليم كتبهم والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واتباعه.. ولكنهم أبوا إلا الكفر واتباع الباطل.

ـ وماذا عن عقيدة اليهود في الله عز وجل؟

- لقد تجرأ اليهود على الله في صفاته عز وجل.. وكذبهم الله فيما زعموه.. فقد كذبوا على الله ووصفوه (بالبخل).. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (المائدة) سبحانه وتعالى... ووصفوا الله عز وجل بالحاجة إلى الراحة بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام (ارتاح) في اليوم السابع.. فكذبهم الله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ (ق).. ونسبوا إلى الله عز وجل أنه (بكى وحزن) بعد أن رأى فعل ابن آدم من الظلم والطغيان والإفساد في الأرض.. فكذبهم الله بأن كل شيء سبق في علمه قبل خلق السماء والأرض.. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ (هود).. واستحقوا لعنة الله والملائكة والرسل بوقاحتهم مع الله عز وجل...

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ (المائدة).

عقيدتنا في اليهود (٣ـ٣)

تابع صاحبي الباكستاني «نور» أسئلته عن العقيدة الثابتة الصحيحة في اليهود بعد أن أخذنا مجلسنا على رمل الشاطئ.

ـ وهل القردة والخنازير سلالة اليهود؟

ـ إن الثابت أن الله مسخ أولئك اليهود الذين اعتدوا في السبت بأن تحايلوا على أوامر الله بعدم الصيد يوم السبت فمسخهم قردة وخنازير.. ومعلوم أن الخلق الممسوخ لا يتناسل بل ينقطع بالموت.. ورغم كل أنواع العذاب والآيات التي تنزل عليهم يرجعون إلى العناد والمكابرة والكفر بالله والاعتراض على شريعة الله.. ففي زمن موسى أنزل الله عليهم أنواعا من العذاب.. «الجراد والقمل والضفادع والدم».. فإذا جاءهم العذاب آمنوا وإذا رفع العذاب رجعوا إلى الكفر.. ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ (الأعراف).. بل إن الله رفع عليهم الجبل فرأوه فوق رؤوسهم يظلهم.. وذلك ليمتثلوا أمر الله بالسجود.. فجسدوا وأطراف أعينهم تتجه إلى السماء خشية أن يسقط عليهم الجبل!!

شعب قاسي القلب.. كثير العناد.. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا

وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.. (البقرة) ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (البقرة).

ـ ولكن يهود اليوم ـ ربما ـ غير يهود الأمس؟

ـ إن اليهودي الذي يزعم أنه متدين ويتبع التوراة التي معه المحرفة.. هو.. هو.. من عهد موسى... في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. ترجموا هذه الأخلاق إلى واقع بأن نقضوا العهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم.. وخانوا الميثاق معه في أحلك الظروف.. وحاولوا قتله مرات.. ولم يترددوا في إظهار العداوة.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ (آل عمران).

ـ وما العقيدة في حالة اليهود مع المؤمنين من هذه الأمة؟

ـ لقد ذكر الله عز وجل في سورة الإسراء أن اليهود سيفسدون في الأرض مرتين فساداً كبيراً.. وسيكثرون من الأموال والأولاد.. وفي كل مرة يكون هلاكهم على أيدي عباد لله.. يرفعون راية «لا إله إلا الله».. سواء أكانت هاتان المرتان في السابق أو اللاحق.. فإن سنة الله فيهم ثابتة.. ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.. أي إذا رجعتم إلى الفساد بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد.

ـ وماذا عن القتال الكبير بين اليهود والمسلمين؟

ـ جاء في الأحاديث الصحيحة إنه في آخر الزمان لا تقوم الساعة حتى نقاتل اليهود.. وننتصر عليهم كما في صحيح مسلم..

ـ هل صحيح أن اليهود يعتقدون أن الذي يموت بالحجارة تقع عليه اللعنة؟

ـ لهذا القول أصل عند اليهود وذلك عندما قاتل داود جالوت.. قتله بالحجارة وذلك في قصة اليهود بعد موت موسى «عليه السلام» عندما طلبوا من نبيهم أن يعيّن لهم ملكاً يقاتلون الجبابرة معه فبعث لهم طالوت ملكاً وأعطاه التابوت آية لملكه.. فعندما جاوز النهر هو والذين أمنوا معه قتل داود جالوت في فلسطين بحجارة ونزلت اللعنة عليه لذلك هم يخافون أن يموت أحدهم بالحجارة.

الفهرس